



إبداعات معاصرة

مصطفى نصر

ظمأ الليالى

أدباء مصر فى الأقاليم

لوحة للفنان مجدى نجيب

رواية



ظمأ الليالى

ظمأ الليالى

رواية

مصطفى نصر



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٣

مكتبة الأسـرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة إبداعات معاصرة/ أدباء مصر فى الأقاليم)
بالاشتراك مع الهيئة العامة لقصور الثقافة
إشراف: أنس الفقى

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقـافـة
وزارة الإعـلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
وزارة الشـبـاب
التنفيذ : هيئة الكتاب

تصميم الغلاف
والإشراف الفنى:
للفنان : محمود الهندى

المشرف العام :
د. سميـر سرحـان

على سبيل التقديم:

لا سبيل أمامنا للتقدم والرقى وملاحقة العصر إلاّ بالمزيد من المعرفة الإنسانية.. نور يهدينا إلى الطريق الصحيح، ولأن مكتبة الأسرة أصبحت أهم زهور حدائق المعرفة نتنسم عطرها ربيعًا للثقافة المصرية الأصيلة.. فإننا قطعنا على أنفسنا عهدًا ووعدًا ليس لنا إلا الوفاء به لتثمر شجرة المعرفة عطاءً للأسرة المصرية.

د. سمير سرحان

إهداء

إلى الإسكندرية.. مرة أخرى

مصطفى نصر

جاء خليل إلى الإسكندرية بعد حصوله على الثانوية العامة، ليلتحق بكلية التجارة.. ذلك كان منذ سنوات طويلة، فهو الآن مراقب حسابات بمستشفي في حي رأس التين. وقتها، دله أحد بلدياته- في دمنهور- على صاحب بيت حول سطحه الكبير جدا إلى حجرات صغيرة يؤجرها للطلبة الأغراب (بلدياته هذا كان يسكن نفس البيت أيام دراسته) يذكر خليل -رغم مرور السنين- أول يوم وصل فيه الإسكندرية- استطاع الوصول إلى البيت بسهولة، فهو قريب من محطة السكة الحديد، وضع أشياءه القليلة لدي بقال قريب من البيت، دله بلدياته عليه. وأوصاه بأن يشتري منه تموينه (شايه وسكره وصابونه.. الخ) قبل أن يضع الأشياء عنده، وخرج ليبحث عن سكن صاحب البيت، فهو يسكن بيتا آخر.

رفض صاحب البيت أول الأمر، فكل الحجرات مؤجرة، لكن خليل أطرق حزينا وكاد يبكي فهو لا يعرف ماذا سيفعل، كما أن أيجار تلك الحجرات قليل جدا بالنسبة لإيجار الحجرات والشقق الأخرى، هكذا قال له بلدياته.

تأثر الحاج صاحب البيت وقال له:

- يبدو أنك ولد طيب، كما أن "بلدياتك"- الذى أرسلك- كان خير ساكن عندي، لم يسبب لي مشكلة قط.
- سأكون عند حسن ظنك يا حاج مد بولي.

(ذكر أسم صاحب البيت كثيرا وبدون داع ليشعره بأنه يعرفه من قبل أن يأتي إليه..)

- لكنك ستسكن مع زميل لك.

- أي حاجة يا حاج. أى حاجة.

بعد أن أخذ الحاج أجرة الحجرة قال له:

- إياك أن تأتي إلى بعد شهور قليلة وتطالب بحجرة منفردة.

* * *

حكي بلدياته له عما سيلاقيه في ذلك البيت العجيب، وأمسك ورقة وقلما وأخذ يشرح له ويرسم الحجرات الكثيرة.

رغم هذا، كانت مفاجأة خليل شديدة –عندما رأى السطح. بيت كبير جداً في شارع منشا، قديم، سطحه الواسع به أكثر من خمس عشرة حجرة. تشبه المراحيض العمومية، أو الزنازين الضيقة في القلاع القديمة ودورتا مياه في طرف السطح، بجوار كل منهما صنبور ذو فم واسع، وطلبة كثيرون يرتدون "المنامات"، ويسيرون بالشباشب، يطرقعون بها، بعضهم يكتفي بالفانلة "السواريه" يقفون بجوار السور القصير المتآكل، ينظرون إلى الشقق المواجهة في البيوت القريبة

كان من نصيب خليل، شاب من "طوخ" يتعلم في كلية الهندسة. أسمه رجب. مجموعه في الثانوية العامة رماه على هندسة الإسكندرية. رحب بخليل كثيراً، بابتسامته الخجلى. ولم يسأله عن شئ، لم يعترض لمشاركته حجرته الضيقة. مما يبدو أنه كان ينتظر هذا. أو أن الحاج مدبولي– صاحب البيت– قد أخبره بذلك من قبل (علم خليل بعد ذلك. أن سبب اختيار الحاج لرجب دون سواه، لیشارکه حجرته، أن الولد شديد الحياء، ويتلعثم إذا ما حدث من هم أكبر منه سنا، ويحمر وجهه وتكاد عيناه أن تدمعا.

وأيضا، لأن الولد لم يدفع إيجار الحجرة لشهرين متتاليين بسبب إعسار يمر به والده في البلدة، وثار الحاج عليه، وهدده بالطرد، لكن حضور خليل في ذلك الوقت حل المشكلة. فرجب سيدفع، سيدفع؛ مهما طال الوقت. فيأخذ الحاج بذلك أجرة حجرتين من حجرة واحدة) ...

* * *

مرت سنوات الدراسة، وذهب كل المعاصرين لخليل. تخرجوا من كلياتهم؛ فعمل بعضهم في الإسكندرية؛ وانتقل إلى سكن مناسب، والبعض هاجر لبلده، ليعمل ويعيش هناك. ولم يتبق سوى خليل.

مازال في حجرته كما هو. لكنه وحده. فقد تخرج رجب، وتركه منذ أعوام.

يذكر خليل هذا جيدا. فمازال يتأثر إذا ما ذكره.. يقف رجب بقامته القصيرة. يتعلق به؛ يقبله وعيناه تسحان دمعا.

ظن خليل أنه لن يستطيع العيش بدونه. وأنه لابّد أن يزوره في بلده طوخ مرات ومرات. لكن هذا لم يحدث، ولم يأت رجب إلى الإسكندرية مرة ثانية. واكتفي بعدة رسائل ملتهبة أول الأمر، ثم رسائل باهته، فاترة، ثم انقطعت الصلة تماما.

* * *

بعد أن تخرج خليل من كلية التجارة. جاء الحاج مدبولي. قال له:

- متى ستترك الحجرة؟

- لماذا يا حاج؟

دهش الرجل. فالحجرات لم تشغل إلا للطلبة. ولم يطلب واحد منهم- منذ أن بدأ الحاج مشروعه هذا أن يشغل الحجرة بعد تخرجه.

- لكنني لا أرغب في تركها.
- يا ابني..................
- يا حاج، أنا أدفع لك الإيجار أول كل شهر...
- لم أقل شيئا. لكن الحجرة، والمكان لا يناسبانك الآن.
- لا تهتم.

لو كان شابا آخر غير خليل، ما كان الحاج وافق. فالرجل يحرص على أن يكون كل سكانه من الطلبة؛ فهو يتظاهر أمام سكان بيته- الذين يضيقون بهم أن هدفه من مشروعه هذا؛ الصالح العام؛ وليس المكسب الأكثر، فالطلبة مساكين لا يجدون سكنا في غربتهم.
بل حجته هذه يذكرها للمسئولين في المحافظة أيضا؛ حينما يحاسبونه على "العوايد".

القريبون من الحاج يعلمون أن "دخله" من حجراته تلك أضعاف "دخله" من باقي البيت بأدواره الخمسة؛ فحجراته الصغيرة؛ لا تخضع لقوانين الإسكان، ولجان التقدير.. الخ. فهو يحدد الإيجار كما يشاء.
وسكن موظف مثل خليل. سيفسد حجته تلك وسيحول الرجل إلى جشع مستغل.

لكن خليل يؤدى له خدمات كثيرة؛ فهو الذى يجمع الإيجار من الطلبة؛ أول كل شهر؛ ويذهب به إلى بيته، وهو الذى يشرف على صيانة الحجرات؛ وإصلاح الكهرباء؛ ودورتي المياه.. الخ.
كما أنه "عاقل" ومتزن. فإذا ما أساء طالب التصرف مع الجيران (وهذا يحدث كثيرا جدا) يسرع خليل ليحل المشكلة مع الجيران قبل أن تصل إلى قسم الشرطة.

قبل سكن خليل، كان الحاج مدبولي يذهب إلى قسم الشرطة كثـيرا. بسبب الأولاد الذين يعاكسون البنات والزوجات في الشقق المواجهة. حقيقة أن الشرطة لم تتخذ ضده أي إجراء قانوني. ولا ضد طالب واحد من سكانه. لأن الجيران لم يستطيعوا تحديد الطلبة الذيـن يعاكسـون. فكلـهم متشابهون. ويرتدون "منامات" وشباشب. لكن العيار اللى ما يصبش يدوش.

قال الحاج له:

- على خيرة الله يا خليل.

وبقي خليل في حجرته تلك، يشعل "السبرتاية"، ويصنع الشاي فوقـها. يشربه وهو يرتكز على جانب السرير، يقرأ جرائـده ومجلاتـه، منـذ أن حصل على بكالوريوس التجارة لم يقرأ كتابا واحدا.

يزوره بعض الأولاد الذين مازالوا يدرسون في كلية التجارة. ليشرح لـهم بعض الدروس، أو أن يأتي بعض الطلبة ليتحدثوا معه في أمور الدنيا.

كلهم يقدرونه ويجلونه. لا ينادونه إلا بلقب "أستاذ". يسأله بعضـهم بعـض النقود، سلفة إلى حين مجيء مبالغ أهلهم. ويعطيهم خليل. فهو الوحيد بينهم الذى يعمل ويقبض أول كل شهر.

كما أنه يحل خلافاتهم التى تحدث كثيرا بسبب اسـتعمال المراحيـض. أو نشر الغسيل أو رفع صوت المذياع.. أو اختلاف البعض على بنت واحـدة من بنات الجيران، يحبونها.

سأله البعض عن سبب تمسكه بهذه الحجرة. مط شفتيه ولم يجب. فهو لا يدري ما الذى يجعله يتمسك بها.

المهم أن فكرة الانتقال لمسكن آخر لم تخطر له على بال.

أسيبحث عن شقة أو حجرة، وسماسرة، ووجع قلب.؟!

أنها تكفيه ولقد أعد بها بعض الإصلاحات. مما جعلها -رغم صغرها- جنة.

كما أنه لم يحدد بعد. إن كان سيذهب إلى دمنهور أم سيظل-هنا- في الإسكندرية.

* * *

يصحو خليل مبكرا. فيتوضأ ويصلي. ويخرج من الحجرة؛ وباقي الحجرات الأخرى مغلقة. الطلبة نيام لم يزالوا، يسير في شارع "منشا". يذهب إلى عطية البقال. الذى يكون مشغولا بإخراج بضاعته أمام الدكان. يساعده خليل أحيانا، ثم يشتري منه إفطاره. الجبنة والحلوى الطحينية.. الخ.

سنوات وهو يتعامل معه. منذ أن وضع أشياءه عنده؛ قبل مقابلة صاحب البيت.

الرجل يثق به، يشكو له من بعض الطلبة الذين لا يريدون سداد ما عليهم له. يعلم عطية أن خليل سيأتيه بماله منهم، لهذا يعطيهم مطمئنا.

كانت دكانة عطية البقال صغيرة فقيرة. قبل أن يشرع الحاج مدبولى في مشروعه هذا. الرجل إعتمد على البيع للطلبة. يأتي لهم بكل ما يلزمهم، حتى الكراريس والأقلام التى يكتبون بها. فكبر دكانه واتسع.

بعض الطلبة يتهمونه بسوء الخلق. لأنه لم يتزوج للان. رغم كبر سنه ولأنه يحابي طالبا ذا عينين زرقاوين وشعر أصفر مسترسل. وجسد يميل للامتلاء. يعطيه الحلوى دون مقابل. ولا يلح في السؤال عن نقوده. إذا ما اشترى منه بالأجل. بينما يطارد الآخرين في ذهابهم وعودتهم.

يبتسم خليل لهذا. فالأولاد كما هم لا يتغيرون. يتذكر ما كان يحدث مع رجب- زميله في حجرته- أيام الدراسة. كان باقي الطلبة يرددون عليه هذا ساخرين، مازحين معه. فقد كان الولد جميلا. وكان الرجل يصبر عليه. ولا يلح في الطلب.

* * *

تأتي ترام (٤)، الذاهبة إلى رأس التين. المسافة من أول الخط. حتى شارع "منشا" ليست بعيدة. لهذا، يجد خليل -عادة- مقعدا خاليا، يجلس ناظرا إلى الشارع. تزدحم الترام بعد ذلك بالطلبة والطالبات، حي محرم بك عامر بالمدارس الكثيرة، تصطدم الأجساد بساقيه وجسده.

،في محطة مصر، يركب عبد المنعم -صديقه- وزميله في العمل. يشير له خليل لكي يصعد الترام.

أحيانا، لا يستطيع عبد المنعم الوصول إليه من شدة الزحام. يحييه من بعيد. إذا استطاع الوصول يلح خليل عليه بأن يجلس مكانه. فعبد المنعم أكبر منه سنا. رغم أن خليل أعلى منه في الوظيفة، فهو لم يحصل إلا على الابتدائية القديمة، ويعمل معاونا للمستشفي. يرأس عبد المنعم كل عمال المستشفي.

يحدثه -أحيانا- وهو يقف بجواره عن بعض الأمور في المستشفي الذى يعملان به.

منذ أن عمل خليل بالمستشفي وهو يري عبد المنعم مبتسما. يحدث التومرجية، يأمرهم وهو يبتسم.

إذا ما تحدث مع مدير المستشفي يبتسم أيضا، حتى عندما يثور في عامل من عماله، يبتسم بعد دقائق. بل يخيل لخليل انه يبتسم وقت ثورته.

يدخلان باب المستشفي الحديدي. عامل البوابة يفتح الباب رافعا يـــده محييا. من أجل عبد المنعم رئيسه.

حجرته صغيرة. بها دولاب ومكتب صدئ. وبعض الأوراق ومقعدان أمـــام المكتب. يجلس خليل أمامه. يفرش لفافته: الخبز الفينو والجبنـــة والحلـــوى الطحينية.. الخ.. يسرع عبد المنعم في إحضار أفطاره من مطبخ المستشفي بيض مسلوق ومربي، وبطيخ، وأشياء كثيرة أخرى.

عارضه خليل أول الأمر. على أساس أن ذلك حقّ المرضى. لكـــن عبـــد المنعم أقنعه بأن الطعام من كثرته يرمونه. فعدم "أكله حرام. حتى لا نرمي نعمة ربنا في الزبالة"

يتناول طعامه لدى عبد المنعم. لأنه يخجل من تناولـــه أمـــام قدريـــة ومديحة الموظفتين اللتين تعملان معه في المكتب. لـــلآن لا يســـتطيع أن يتكيف مع النساء. التربية في دمنهور مازالت تؤثر عليه. لا يســـتطيع أن ينادي قدرية ألا بـ"مدام" قدرية، و"آنسة مديحة". رغم أن مديحة أقل ســـنا منه، وهو رئيسهما في نفس الوقت.

لم يزره عبد المنعم في حجرته الصغيرة بشارع منشا. ولم يزره أحـــد من المستشفي.

يلح عليه عبد المنعم:

- لابد أن تجد لك سكنا أخر.

كل عدة أيام، يأتي له بسكن جديد. حجرة فوق سطح بيت في غربال.(الحي الذى يسكنه عبد المنعم) أو شقة صغيرة.

وخليل يرفض هذا، حالته المالية لا تسمح، لابد من إرسال جزء كبير مـــن راتبه إلى أمه في دمنهور...

• • •

مديحه جميلة. أقصر منه قليلاً. شعرها طويل لم تقصه مثل معظم الموظفات والممرضات والطبيبات في المستشفي. هو يحب لأن الشعر الطويل. أجل. فالشعر تاج المرأة.

قال لها هذا وسط الحجرة، وأمام الجميع. بل كانت تقف هناك بعض الممرضات. سعدت مديحة. لمست شعرها بفخر.

يلاحظ خليل نظراتها نحوه من تحت المكتب. فيتظاهر بعدم رؤيتها.

يعرف أنه ليس وسيما وليس أنيقا أيضا. لا يعرف للان كيف تعقد رابطة العنق. وكيف يعرف وهو لم يرتد بذلة كاملة في حياته. القميص والبنطلون في الصيف. والبلوفر في الشتاء. وربما أرتدي جاكيت من نوع آخر لا يتناسب مع البنطلون أبدا.

عبد المنعم الآن يشتري له ملابسه. يذهبان معا إلى "المنشية"، يختار عبد المنعم الألوان ونوع الأقمشة. ويساوم البائع طويلا حتى يشتريها بأقل سعر ممكن.

مدام قدرية تقول أن عبد المنعم ذوقه سيئ للغاية. وأنها في المرة القادمة ستذهب لتختار له ملابسه بنفسها.

مديحة تعارض هذا، وتؤكد أن ملابس الأستاذ خليل ذوق وقيمة. وحشمة.

عبد المنعم يبتسم. يهمس:

- البنت مديحة، عينها منك.

لا يفاجئه قوله. فهو يحس بهذا منذ وقت طويل.

والد مديحة عامل بالمستشفي. يعمل في المطبخ. يأتيها وسط النهار بطعـام من المطبخ. يشترك كل الحاضرين في تناوله حتى مدام قدرية. لكن خليـل يعتذر ويخرج وقتذاك، ويترك لهم المكتب.

تزوج عبد المنعم صغيرا. لدية الآن خمسة. ولـدان وثلاثـة بنـات. الأكبر في كلية الهندسة. والآخر في التجارة. والبنات أكبرهن في الإعدادية الآن. الحمل ثقيل عليه، والمرتب ضئيل.

في وقت العمل، يخرج عبد المنعم، يدور وسط حلقة السمك القريبـة مـن المستشفي. يقابل تجار السمك الكبار. يكتب لهم بعـض الطلبـات أحيانـا: بخصوص الضرائب. والتأمينات.. الخ يجمع لـهم بعـض "الحسـابات"، يدفعون له مبلغا شهريا ولفافات السمك. البعض في حاجة إليه. فهو معـاون المستشفي. وهم يسكنون قريبا منها، يحتاجون لدخولها؛ إمـا للعـلاج، أو لزيارة أسرهم الذين يعالجون فيها. يدخلهم عبد المنعم في غـير مواعيـد الزيارة، ويوصي عليهم الأطباء.

والبعض الآخر يدفع له شفقة. فهم يعلمون أنه موظف على قدر حالـه. ومصاريفه كثيرة.

الأطباء الكبار في المستشفي لديهم عيادات خاصـة. يكسـبون منـها كثيرا. وعملهم في المستشفي من باب إن فاتك الميري، أتمرمغ في ترابه؛ معاش والسلام.

يوصون عبد المنعم بشراء "وجبة" سمك جيدة من الحلقة. المال ليس مـهما؛ المهم أن يكون السمك كبيرا وجيدا.

يأخذ عبد المنعم عاملا أو عاملين من المستشفي. ويشتري من التجار أصحابه يعطونه بأقل من سعر السوق (الحساب لا يتم أمام العمال الذين يرافقونه) الأطباء الكبار يعطونه حق تعبه.

زوجاتهم يتصلن به بالتليفون:

- عبد المنعم، لدي وليمة. أريد وجبة سمك جيدة.

يترك المستشفي. ويشتري السمك. ويذهب بسيارة المستشفي التى يشتري بها الخضار واللحم. الخ يعطيها السمك. وتدفع النسوة أكثر دائما.

يعود عبد المنعم إلى حيه (غربال)، يتحول إلى شخص آخر. يقف له الرجال محيين:

- تفضل يا عبد المنعم أفندي.

يرد في جدية. ابتساماته في الحي أقل. مشغول دائما بالأشياء التي يحملها لأسرته: سمك فاكهة، طعام من المستشفي؛ بدلة على مقاس ابنه؛ أعطاها له طبيب كبير.

معظم الجلوس حوله لا يجيدون القراءة. زبالون، كناسون. أو مهن مقاربة لهذا.لكنهم يكسبون أكثر منه. ويعاملونه وكأنه هو الذى يكسب أكثر منهم. فهو موظف يجلس فوق مكتب.

يذكر عندما أحيل والده إلى المعاش بعد عمله ساعيا في المحافظة، حدد مبلغا- مساعدة من أولاده- كان نصيب عبد المنعم المبلغ الأكبر- رغم أنهم يكسبون أكثر منه بكثير. لكن أمام الناس هو موظف، وهم يعملون في الزبالة. يمشون بملابسهم المتسخة، وأحذيتهم القديمة الممزقة. وهو يرتدى ملابس نظيفة وأحيانا. بدلا يعطيها له الأطباء الكبار في المستشفي.

يلجأ الحي كله إليه، إذا ما اشتكوا من شئ في أجسادهم. يزورونه في مكتبه بملابسهم المتسخة. يسرع بهم إلى الأطباء. يؤكد الناس في الحي- أن عبد المنعم مهم جداً في عمله؛ بدليل تباسط الأطباء ومزاحهم معه.

* * *

تعثر ابنه طالب التجارة في دروسه. فطلب من خليل أن يأتي معه ليساعده. فجاء خليل إلى غربال لأول مرة جلس مع الولد. وشرح له ما خفي عنه. ووعد بزيارته مرات ومرات. حتى يصبح متينا في دروسه.

تقدم زوجة عبد المنعم الطعام له، يرفض أول الأمر. لكن عبد المنعم يقسم ويلح مرددا:

- أنت أعزب. ولا تتناول هذه الأطعمة في بيتك.

أحس خليل أن عبد المنعم في بيته غيره في المستشفي. فهناك لا يدعو واحداً على كوب شاى، لكن في بيته أكثر كرما.

زوجة عبد المنعم عندما تنام بجوار زوجها على السرير. تقول له:

- الولد طيب. وأبن حلال. وليس له أسرة هنا. ليته يتزوج "هناء"

يدفعها عبد المنعم في ضيق:

- هناء مازالت في الإعدادية.

- وماله . سنة واثنتان وتكبر.

يعطيها عبد المنعم ظهره. ويشرد في أشياء أخري.

* * *

يسهر خليل أحيانا في العمل، خاصة أيام انتهاء الميزانية في شهر يونية.

تعمل مديحة فوق مكتبها سعيدة. لأنها جلست مع خليل بعض الوقت. يلح عبد المنعم عليه أن يتناول الطعام معهم؛ ويرحم نفسه من طعام السوق. يذهبان إلى حجرة "سمير عبد الغفار" أمين المخازن بالمستشفي، في عهدته: عدس وأرز وسمن المستشفي، وباقي الأطعمة التي يمكن تخزينها، وكذلك المعدات الطبية. يعد عبد المنعم- من المخزن- وجبة غداء عظيمة. يشترون من الخارج ما يلزم.

يرسل سمير الطعام إلى خطيبته "رسمية" التي تعمل ممرضة لكي تقوم بوضعه في "الفرن" الخاص بهن.

يتناولون الطعام في حجرة سمير.

- ٢ -

سمير عبد الغفار ليس في حاجة للسهر في العمل بعد الظهر، فعمله قليل للغاية طوال النهار. يصرف ما تحتاجه المستشفي من مخزنه. وهذا لا يستغرق ساعة أو ساعتين.

لكنه يسهر في الأيام التي تعمل فيها رسمية -خطيبته- لا يستطيع أن يذهب إلى بيته ويتركها وحدها في المستشفي؛ وهو يسمع عما يحدث بين الممرضات والأطباء.

يحبها سمير منذ أن كانا طفلين صغيرين. يتابعها في اهتمام شديد، جسدها المصبوب صبا، وعيناها اللتان تشعان سحرا، لم تكن تحبه. فهو ليس وسيما، كانوا يسمونه في صغره "بأبي رأسين" لطول رأسه واستطالتها. كما أن حالة أسرته المالية؛ لم تكن تسمح له بأن يرتدي ملابس أنيقة مثل العديد من أبناء الحي، ولم يكن يمتلك مالا لكي ينفقه على البنات.

لكن رسمية عرفت الكثيرين من شباب الحي: رمضان طالب الطب.
الذى كان يسكن الشقة السفلي من بيتهم والتى كانت تنزل إليه في غياب كل
من في البيت، فيضعها فوق ساقيه، ويمنيها بالزواج بعد التخرج.
كانت تحلم بأن يعملا في مستشفي واحدة. هو طبيب وهي ممرضة.(فقد
كانت قد التحقت بمدرسة الممرضات) لكن رمضان ترك الحي قبل أن
يحصل على البكالوريوس، ولم تسمع عنه شيئا. الآن تحلم بأن تقابله في
مستشفى، يعملان معا. فتعيد معه ما كان. ويتزوجها.

وعرفت الولد خميس أبن بائع اللبن ومنتجاته المشهور في حيهم؛
والذى يقف في دكان والده في الصباح..
فتذهب إليه. تضع يدها الصغيرة في كفه؛ وهى تعطيه ثمن اللبن والجبن.
كانت تبتسم خجلة. وتتباعد عنه. يأخذ النقود مسرعا إذا ما أحس أن زبونا
يدخل المحل.
خميس معروف في الحي بعلاقاته الكثيرة. كان يلعب مصارعة. جسده
قوي. وقمصانه ضيقة. محزقة حول الصدر لتكشف عن عضلاته.
ذهبت معه إلى شاليه؛ كان يمتلكه بالاشتراك مع بعض أصدقائه، قبلها.
وجعلها تخلع ملابسها كلها فيما عدا قطعة أو قطعتين.

خلال تلك الرحلة كان سمير يراقبها بإعجاب. تجرأ يوما وحدثها.
قالت له:

- أنت مثل أخي. وارجو أن تهتم بدروسك.

حدثته بكبرياء وشفقة عليه. وكأنها أكبر منه. رغم أنها الأصغر.
لم يغضب. فهو يعلم أن ظروفه التعسة لا تجعله ندا لها. لكن حدث ما لم
يكن تتوقعه رسمية، فلقد خطب خميس– أبن بائع اللبن– ابنة تاجر غني في

الحي. ولأن التاجرين غناهما لا يخفي على أحد؛ فقد أقاما حفلا لم يحدث من قبل. أنوار في الشارع الكبير. وفي الحواري التى تقطعه. وزينات، وفرق موسيقى كبيرة.

وخميس وسط أصحابه يزفونه. بكلمات ملتهبة وداعرة؛ وسط ضحك بنات الحي؛ فيما عدا البنت رسمية التى بكت طويلا. ولم يهمها أن تعلم أمها بما كان بينها وبينه.

ذهبت إلى خميس في الدكان مرات، لم تجده. كان شقيقه الأصغر هو الذى يقف فيه. إلى أن وجدته. حدثته في هدوء أول الأمر، إلى أن أضطر أن يرمي نقودها التى تمسكها في يدها. ودفعها خارج الدكان حتى وقعت. وصاح بها سابا أمام الجميع. وكشف عما كان بينها وبينه.

بعد ذلك اقترب سمير منها. ربما أحس أن حالتها الآن تسمح لها بقبول أي طارق يطرق بابها. لكنه لم يذكر لها أبدا، انه يعلم بحكايتها مع ابن بائع اللبن.

وافقت على الخطبة. فقد كانت في حالة ضعف شديد. فلم تعاند أو تكابر. فقد تركها رمضان طالب الطب. بعد أن كانت تنزل إليه في شقته. واكتشفت مرة أنه كان يقبلها بينما أصدقاؤه يتابعونه من حجرة بعيدة.

ثم هجرها خميس بفضيحة تحدث عنها الحي كله طويلا.

الحي الذى تسكنه رسمية وسمير قريب من المستشفي. لهذا فضلا أن يعملا بها. هو أمين مخازن، وهى ممرضة.

دهشت صديقاتها في الحي، عندما حضرن حفل الخطبة، فقد كن يسمعنها وهى تسخر منه. قالت لهن مرة

- سأحكي لكن حكاية مسلية. لقد تبعني الولد سمير أبو رأسين؛ وأراد أن يشكو لي حبه.

رسمية البنت الوحيدة لامها. أبوها مات دون أن ينجب سواها، وظلت أمها من أجلها دون زواج. وترك الرجل لها ولأمها عدة بيوت صغيرة، منها البيت الذى تسكنه.

إذا أردنا أن تصفها. فلن نجد وصفا أكثر دقة من قول رمضان طالب الطب عنها. عندما وصفها لأصدقائه:

- أنها أنوثة مركزة.

فهي ليست طويلة. لكن الأنوثة صارخة فيها: الصدر البارز. والردفان في مستوي المقاييس المثالية للجمال. ووجهها مستدير، كل ما به يوحي بالأنوثة أكثر من الجمال. شفتان ممتلئتان. وعينان لوزيتان في اتساع. لكن، لا تستطيع أن ترى جمال الوجه. إلا إذا ما خلعت النظارة، التى ابتليت بها منذ صغرها. فقد أصيبت بحساسية في عينيها. جعلتها تدمع طوال الوقت من الضوء الشديد.

وشعرها شديد السواد، ثقيل. يرقص على ظهرها إذا ما سارت.

• • •

لكن مشكلة رسمية أن سمير يغار عليها كثيرا جدا. وهى تزيد ذلك اشتعالا. تفعل ما يجعله يزداد غيرة. تمازح الأطباء الشبان، تمسك أيديهم مداعبة. وتضحك بطريقة نزقة، تجعل الكل ينظر إليها.

ولقد نبهتها رئيسة القسم الذى تعمل به لخطورة هذا. وجازتها عواطف رئيسة جهاز التمريض بيوم جزاء بعد أن حذرتها كثيرا لهذا.. لذا يضطر سمير إلى السهر في المستشفى إذا ما كانت تعمل في المساء.

بعد تناول الغداء وشرب الشاي، يذهب عبد المنعم لقضاء بعض الحاجات خارج المستشفي، واعداً خليل بأن يعود خلال ساعة. ويذهب خليل إلى مكتبه لينهي عمله. ويبقي سمير وحده في مخزنه. حوله أجولة السكر والأرز والعدس.. ورسمية في سكن الممرضات بعيدة عنه. أو في عملها تشرف مع الطبيب على علاج المرضي.

يغلق المخزن. ويصعد إلى سكن الممرضات. رسمية ترتدي منامتها المحكمة حول جسدها الرائع. تقترب البنات منه. يحدثنه عن رسمية. عن أجمل ما فيها في رأيه. وعن موعد زفافهما. وعن أشياء أخري كثيرة يجيب سمير عليهن في خفة. مما يجعلهن يضحكن؛ ويجلس بجواره على السرير. ويتطور الحديث حتى الولوج إلى مناطق الخطر في مواضيع الزواج. بعض البنات يخجلن. فيبتعدن. والبعض يفرح وينتشي. وتجيء عواطف –رئيسة جهاز التمريض– فتسرع كل واحدة إلى سريرها. فتجد سمير جالسا فوق سرير خطيبته. تحييه في ضجر. وتبتعد عنه. بعد أن يهبط تلوم رسمية لذلك:

- المفروض أن المكان مخصص للفتيات لترتحن فيه. وينمن. فكيف يدخل عليهن وهن في وضع مثل هذا؟

وسمير لا يستطيع أن يخرج من المستشفي، وخطيبته فيها. فيتكرر رؤية عواطف له في سكن الممرضات مرة في مرة. لم تستطع السكوت عليه. فصرخت فيه:

- عيب يا أستاذ سمير. البنات يخجلن منك. أنت تحكم حريتهن بأفعالك.

ويهبط سمير حزينا.

* * *

بدأت عواطف عملها حكيمة في مستشفيات وزارة الصحة. لا تذكر عدد السنوات الآن؛ ولا حتى لوالدها الذى تعيش معه وحدها الآن.

إذا ما تحدثنا معا؛ وتطرق الحديث ليوم تعيينها؛ وبداية عملها بالمستشفيات، يحاول الرجل المسن أن يتذكر فلا تساعده، بل تحاول أن تبعده عن هذا؛ رغم أنها تعلم أنها أقرب الناس إلى قلبه. لكن ذكر عدد السنوات التى تعمل بها. تضّربها. وتتمنى نسيانها. تتمنى أن تنسي التاريخ. وكل ما يتصل به. تنسي علم الحساب والأرقام. حتى لا تذكر يوم مولدها؛ والسنة التى ولدت فيها.

لم تكن تظن- فور تعيينها أنها ستظل لأكثر من عشرين عاما دون زواج؛ وأنها ستري زميلاتها تتزوج الواحدة تلو الأخرى، وهي تنظر اليهن، وتحضر حفلاتهن، وتبتسم لهن ولأزواجهن. ولا يكون لها حفل زفاف طوال هذه المدة الطويلة.

ماتت أمها قبل أن تراها تلبس طرحة الزفاف. وشقيقها الوحيد الذى يصغرها بخمس سنوات وأكثر؛ تزوج. وأنجب. وابنته في الابتدائية الآن (لا تدري في الحقيقة أن كانت في الابتدائية أو الإعدادية)؛ فالسنوات لم تعد تعني لها شيئا. من فرط عدم اهتمامها بالسنوات؛ اعتادت أن تنساها حقيقة. البعض يظن أنها تتناسى؛ لكنها تنسي حقا. يذكرون أمامها أن مديو المستشفي جاءهم منذ خمس سنوات. فتتعجب من هذا. فهي تظن أنه لم يمر عليه في المستشفي أكثر من سنتين وشهور. أو أن الدكتورة فلانة تزوجت من عشر سنينْ، فتندهش وتؤكد أن ذلك الرقم كبير جدا، وتظنها لم تكمل الخمس.

ظلت هى ووالدها في شقتهما الواسعة بشارع السلطان حسين. تسهر في المستشفي أحيانا، وتعود، تفتح الباب بمفتاحها، فتجده نائما في حجرته، تخلع ملابسها، وتسير في الشقة على حذر، فهو لو استيقظ سيظل ساهرا للصباح، وصحته لا تساعده على ذلك. فمن الممكن أن يمرض في موضوع مثل هذا، أسبوعا أو أكثر.

تحس بالملل، النوم يأتي بصعوبة. تظل تذكر السنوات الطوال التى مرت من عمرها دون زواج. عملت في مستشفي الحميات في أول دفعة من "معهد التمريض العالي" بجسدها الضامر، الشديد النحافة، ولونها الأصفر. أمها بحثت لها عن وصفة تعيد نضارتها وتزيد وزنها، فأخذتها إلى "حلقة السمك" لتشرب دم "الترسة" لكن ذلك لم يفعل شيئا. ظلت ضامرة كما هي، قابليتها للطعام ضعيفة.

لم تكن تظن أنها- بعد سنوات قليلة- ستنتقل إلى هذ المستشفي الذى لا يبعد عن الحلقة سوى أمتار قليلة.

تأتي الممرضات إليها ، يقلن لها يا "أبله"، توزعهن على أقسام العمل المختلفة. تشرف على عملهن. تجري هى التحقيق معهن إذا ما أخطأن، وتحدد العقوبة بنفسها، طبقا للائحة التى تعرفها جيدا.

تجلس مع خليل أفندي- مراقب حسابات المستشفي. تسلمه الجزاءات. تجلس أمامه. أوراق الجزاءات كثيرة. واحدة تطاولت على الطبيب، وأخري تغيبت عن ورديتها..الخ ويكتب خليل أفندي أمام كل أسم في الكشوف قيمة الجزاء.

صوت عواطف رفيع، حاد. شعرها مجعد؛ تكويه كثيرا. لكنه يعــود إلــى تجعده بعد قليل، أنفها صغير لا يحتمل النظارة البيضاء فوقه. فدائما ترفعها بإصبعها.

يأتي عبد المنعم –المعاون– يبتسم لخليل. يهمس لعواطف:

- لكن. شروة المرة السابقة لم تكن جيدة.
- كيف يا دكتورة.لا. هذه المرة أحسن.

نقود عواطف كثيرة. تعمل منذ سنوات طوال، وراتبها ليس صغــيرا الآن، ليست في حاجة إلى شيء والدها معاشه كبير. ولديه عدة بيوت صغــيرة. تدر عليه مبلغا لا بأس به. كما أنها تكاد لا تخرج من البيت بعد عودتــها من العمل، حتى الملابس لا تنفق عليها كثيرا.

هى كريمة مع العاملين بالمستشفي. تدفع بقشيشا كبيرا إذا مــا قــدم تومرجي لها خدمة، أو اشتري لها شيئا من خارج المستشفي. تعــرف أن عبد المنعم صديق خليل، يخرجان من باب المستشفي معا.

ويقضيان الوقت معا، إما في حجرة عبد المنعم الصغيرة أو أمــام مكتــب خليل الكبير. عملها يتصل بهما.

فخليل هو الذى يخصم الجزاءات من المرتبات. وعبد المنعم يرأس عمــال المستشفي. ولابد من حضوره وقت التحقيق معهم.

يدور الحديث حول السمك الذى يشتريه عبد المنعم من تجار الحلقة.

قدرية تسكن قريبا من المستشفي. وتعرف الصيادين معرفــة جيــدة. بعضهم يدقون بابها، ويأتون بالسمك إليها، لهذا عبد المنعم لم يعرض عليها سمكة أبدا.

أما مديحة فأبوها من "الجعافرة" بلد معظم الصيادين في رأس التين. وأقاربه يعملون بالصيد. بعضهم أصبح من التجار الكبار. يهدونه السمك أحيانا دون مقابل.

فالاثنتان (قدرية ومديحة) لا يهمهما سمك عبد المنعم. ولا حديثه عنه.

لكن المستشفي كله يشهد لعبد المنعم بأنه لا يأخذ سمسرة من موظف فقير أو عامل بالمستشفي بل لو رآه يشتري من الحلقة، يوصي عليه التجار؛ ويلح عليهم بأن يعطوه بثمن أقل.

وعواطف تنظر إلى خليل الذى يبتسم في تثاقل. لا تعرف عنه إلا القليل. تعلم في الإسكندرية، ومازال يعيش عزبا فيها.

لا تراه يمازح الممرضات. أو يسعد إذا ما جلست واحدة منهن بجواره مثل العديد من موظفي المستشفي.

تحكي عواطف عما حدث في المرة السابقة، الخادمة أعدت السمك، ووالدها أحس بعسر هضم فلم يذقه. الكمية كبيرة، وهى وحدها. اتصلت بأخيها، لكن زوجته اعتذرت فهي لا تستطيع الحضور لأن ابنتها حرارتها مرتفعة.اضطرت عواطف أن تعطي الباقي إلى الخادمة، لتأكله مع أسرتها في بيتها.

من الحديث عرف خليل أن الشقة واسعة، بها خمس حجرات واسعة. وصالة كبيرة يمكن أن يقام فوقها ماتش كرة ودورتان للمياه واحدة عربي والأخرى إفرنجي.

قالت قدرية لها:

- ليتك تتزوجين فيها.

ضحكت مديحة. وهى تنظر داخل درجها. وقالت عواطف معترضة:

- لا. لابد من شقة خاصة بنا.

حاولت قدرية أن تخفي ابتسامتها. لكن عواطف مازالت تنظر إليها، فلمحتها.

سكتت فمن ذلك الذى تتحدث عنه، من ذلك الذى ضمته إليها، لتكون لهما شقة خاصة بهما؟!

دار الحديث عن أشياء كثيرة في المستشفى.

أحست عواطف أن مديحة تهتم بخليل اهتماما خاصا- تعد له الشاي بنفسها؛ وتضعه أمامه.

عواطف منذ أن عملت بالمستشفيات. وهى تعرف هذه الطريقة التى تؤدي أحيانا إلى الزواج.

بعد شهور قليلة، سنسمع عن خطوبة خليل لمديحة. أجل. فهو "عز الطلب" غريب عن الإسكندرية. والبنت جميلة كل ما بها يغري.

سألته قدرية وهي تنظر إلى مديحة:

- ألم تحدد موقفك. إن كنت ستذهب إلى دمنهور أم لا؟

- أحس بالاختناق كلما ذهبت إلى دمنهور. لكن أمي بها. مرتبطة بأخواتي البنات المتزوجات. لا تريد أن تتركهن.

أحست عواطف أن قدرية مشتركة مع مديحة في الإيقاع به.

مر الوقت دون أن تحس. فلمت أوراقها وقالت:

- سنكمل في الغد.

وطوي خليل كشوفه. ووضعها في درج مكتبه.

* * *

ابتسمت عواطف في المساء. وهي تتابع ما حدث اليوم.

محاولة مديحة وقدرية في الإيقاع بخليل. لم تغضب، ولم تحزن، ولم تحس بالغيرة. بل سعدت لمتابعة هذا. خليل ليس وسيما، وملابسه ليست أنيقة، كما أنه لا يعرف أن يقول كلمتين على بعض، لكن جسده قوي كثور. المستشفي كله يتحدث عن هذا. كما أن أزمة الزواج جعلته دون جوانا في عيني مديحة.

أرادت أن تحدث أباها عما حدث، أن تشركه في لعبتها الجديدة المسلية. تحس أن أباها لم يعد يهتم؛ كما كان من قبل؛ بأن يبحث لها عن زوج، أو يتحمس لزواجها. لعله أسلم الراية، وقنع بالهزيمة. كان في الماضي يعدها بأن يهديها "الصيني" الذى تركته أمها؛ والذى ليس له مثيل الآن. وعندما تزوج شقيقها الوحيد عادل؛ رفض أن يعطيه لزوجته، قال إنه ملك لعواطف، لكن في السنوات الأخيرة لم يعد يحافظ عليه. إذا ما جاءهم ضيف مهم؛ يطلب منها أن تخرج بعض أكوابه؛ أو أطباقه. واكتشفت - أيضا- أنه قد أهدي زوجة شقيقها أحد أطقمه.

كان والدها يرتدي روبة الثقيل. ويتدثر بالبطانية، فوق مقعده العريض، يلبس نظارته ويقرأ الجريدة.

ترددت كثيرا. ثم قالت:

- لقد رأيت اليوم محاولة للايقاع بشاب ريفي.

أهتم والدها بالحادثة، ظن أنهم مجموعة من النصابين؛ اصطادوا شابا ريفيا وخدعوه.

حكت له عما حدث. ابتسم وأحس بأن الموضوع لا يستحق اهتمامها. فما قالته الفتاة أو مساعدتها المتزوجة، لا يعني بالضرورة؛ أنهما يعدان للايقاع به.

ثم عاد ثانية إلى جريدته. وظلت هي شاردة فيما حــدث. فكــرت. مــادام والدها لا يهتم بموضوعاتها تلك. فلتشرك معها إحدى صديقاتها. من تلــك التى ستستمع لأفكارها؟!

كل من في المستشفي لا يصلحن لهذا، أول ما سيفعلنه هو ابلاغ مديحــة أو قدرية بأحاسيسها، وليس لها صديقات خارج المستشفي، كلــهن تزوجــن. وأصبحت مشاغلهن تافهة. الطفل الذى لا يكف عن البكاء؛ والزوج الــذى يقلب الدنيا لأنه اكتشف أن زرار قميصه مقطوع.

تسربت من الصالة الكبيرة إلى حجرتها. أطفأت النور، وحملقت فــي سقف الحجرة طويلا.

أحست بوالدها -بعد ساعات- يغطيها. ويغلق باب الحجرة عليها في حذر.

كان عبد المنعم يتحدث، وخليل شارد في ترام العودة.

رغم أن الساعة الثانية الآن (موعد خروج المدارس والموظفيــن) إلا أن الترام لم تكن مزدحمة، فقد ركباها من أول الخط (محطة رأس التين)

مديحة جميلة، رقيقة، لو أخذها معه في دمنهور ستفرح أمه بها. فليس فى عائلتهم من تدانيها في جمالها. لكـــن والدهــا فقــير، لا يســتطيع أن يجهزها، أنه لن يهتم بهذه الأشياء الآن.

كان عبد المنعم يتحدث عن مدير المستشفي، وعما حدث معه بالأمس. أعطاه مبلغا من المال ليشتري علبة جاتوه من محل مشهور؛ بمناسبة عيــد ميلاد ابنته. على أساس أن القطعة بخمسة وسبعين قرشا. فاشــترى عبــد المنعم القطعة بخمسة وأربعين. الكمية كانت كبيرة. فحصــل علــى مبلــغ كبير. العمال الذين حملوا الجاتوه. كــانوا وقــت الحســاب، فــي مــيارة المستشفي.

قال خليل:

- لكن هذه سرقة.

وضع يده فوق ذراعه.

- سرقة، عندما تكون من واحد غلبان مثلك. مدير المستشفي يأخذ عشرة جنيهات في الكشف.

ويحسب عبد المنعم دخله في الليلة الواحدة.

يريد خليل أن يهرب من هذه السيرة، ويعود إلى مديحة برقبتها البيضــاء. والشعيرات السوداء التى تتزل فوقها. والوجه المبتسم دائمــا. لكــن عبــد

المنعم مصر أن يكمل حديثه عن الذين يكسبون كثيرا. وعن حاجته إلى المال التى لا تنتهي. جلسته في "غربال" تتطلب منه أن يقدم الطلبات لكل من يفد على مجلسه في القهوة. أخوه الأصغر- الذى لا يمتلك شسم زبالة- ويعمل لدى أحد الزبالين بالأجرة- دخله أكبر منه بكثير. يوميته تصل إلى سبعة جنيهات. هذا غير ما يجده في الزبالة من ملاعق وشوك ودخان يبيعه بمال كثير. ويجد أحيانا بعض النقود وقطع الذهب. رغم هذا لابد أن يظهر عبد المنعم في صورة احسن منه.

قال خليل فجأة ليغير الحديث ويوجهه للوجهة التى يريدها:

- ما رأيك في البنت مديحة؟
- تريد أن تتزوجك.
- أعلم. لكن رأيك أنت فيها؟
- كزوجة. لا تصلح.
- لماذا؟
- أنت تعرف أباها، وحالته المالية التى لا تسر عدواً أو حبيباً.
- وما صلة أبيها بهذا؟!
- الزواج ليس فتاة جميلة فحسب. لابد من جهاز وشقة وأشياء كثيرة أخري.
- أجل.
- أم تريد أن تتزوجها في حجرتك مع الطلبة العزاب.

ضحك عبد المنعم لهذا الخاطر، تخيل مديحة وهي بقميص النوم. وسط السطح الكبير ، تنشر الغسيل، والطلبة ينظرون إليها في نشوة ويختبئون.

قال خليل:

- لكن........

لم يقاطعه عبد المنعم، لكن هو لم يجد ما يقوله. أنه معجب بجمال البنت. ومن حقه أن يفكر في الزواج. لكن هناك أشياء لم يكن يحسب حسابها.

قال خليل فجأة:

- ماذا ترى، لو نقلت نفسي إلى مستشفى دمنهور. وأخذت مديحة معي. هناك المساكن أقل مشكلة.

- مديحة لا تصلح لك في أي مكان. في دمنهور لابد من خلو أيضا، ولابد من جهاز، وأنا أدرى منك بحال أبيها.

قبل أن يفكر خليل في الرد عليه، أكمل هو:

- ومن أدراك أنها ستوافق على أن تعيش معك في دمنهور.

- لو كانت تحبني. ستذهب إلى آخر الدنيا.

- حب؟ يا خليل أفهم. أنها تريد أن تتزوج فحسب.

اقتربت الترام من محطة مصر فاستعد عبد المنعم للهبوط.

قال عبد المنعم بعد أن وقف، وبصوت خافت، حتى لا يسمعه الواقفون حوله:

- يمكنك أن تأخذ البنت إلى محل عام. وتعرف ما تريد. لن يكلفك هذا سوي ثمن كوبين ليمون. أو شاي.

نظر إليه في دهشة، وأراد أن يرد أو يثور عليه. لكن المحطة اقتربت. والراغبون في النزول يدفعونه من الخلف ليسرع..

* * *

قبل أن يدخل باب البيت. مر على عطية البقال. اشتري منه "حجـــارة" للراديو الصغير، وبعض الأطعمة. فهو لا يفكر في الخـــروج اليـــوم مـــن حجرته.

أغلق الحجرة ونام بملابسه. سمع صوت الطلبة. كلمات المذاكرة. وسباباً. وضحكا وزعيقا.

وضع حجارة الراديو، وسمع تمثيلية لم يفهم منها شيئا. أدار المؤشر. لـــم يجد أغاني. فأغلقه. ودفعه على المائدة.

دق بابه أحد الطلبة. أراد ألا يفتح له؛ ليس مستعدا لسماع أحد، ولا أن يشرح درسا لأحد.

لكن الطالب ألح. ثم تبعه طالبان آخران جلـــس بعضـــهم بجـــواره علـــى السرير. والآخران جلسا على المقعدين. تحدثوا عن عطية البقال. ونـــوادره معهم. أصابعه التى تلامس خدود بعضهم. وصوته الـــذى يشـــبه صـــوت النساء. قال أحدهم "إنه غير متزوج". ويمتلك بيتاً في شارع عرفان. وقـــال طالب أخر- يسمح له عطية بمساعدته في البيع لزبائنه-:

- أود أن يموت قبل أن أتخرج لأرثه. فليس لديه أحـــد، لا زوجـــة ولا أولاد ولا أب ولا أم.

أحس خليل بالتعاسة لحديثهم. تذكر أمه العجوز التى تعيش في البلـــد. تشرف على قطعة أرض، يزرعها زوج ابنتها الكبرى.

لو مات خليل في حجرته تلك، سيصل أخواته وأمه بعد أن يدفن، ســـيدفنه الأغراب.

أحس بالضيق من الحجرة ومن الطلبة حوله. استأذن لدخول دورة الميـــاه. فانفضوا من حوله وخرج. ذهب إلى غربال. كان عبد المنعم يجلس علـــى

القهوة. يرتدي قفطانه الأبيض. وحوله أقاربه. فوجئ به أمامه استأذن. وأدخله بيته.

ظنه آتياً ليساعد ابنه طالب التجارة في دروسه. لكنه رآه مهموما. فأحس أن ذلك بسبب حديثه له في الترام.

- إيه. مالك؟
- أفكر في العودة إلى دمنهور.
- بدون مديحة؟
- أجل. وحدي

ضحك عبد المنعم وقام ليأمر زوجته بإعداد العشاء له. جاء ابنه طالب التجارة. تحدث معه خليل على دون حماس ثم فوجئ بالمائدة تفرش بورق الجرائد. إيذانا بدخول الخبز والأطباق.

- ما هذا يا عبد المنعم؟!
- لا تقل شيئا. لابد أن تتعشى معنا.

* * *

في الصباح، عندما توضأ. أحس برغبة في البكاء تذكر أمه وأخوته. وأحس بأن الحجرة ضيقة عليه. وأن أصوات الطلبة المستعدة للخروج الى الكلية يضايقه. حاول أن يهرب منهم.

سار دون أن يمر على عطية البقال ككل يوم. وتعمد ألا يركب الترام، حتى لا يقابل عبد المنعم. سيسير حتى محطة مصر. ويأخذ أتوبيس (٦) من هناك.

سيحصل على أجازه أسبوع ويسافر إلى دمنهور.

في طريقه تذكر عطية البقال،وما يقولونه عنه. وقرصه لخدود الطلبة، والبنت رسمية خطيبة سمير عبد الغفار، التى تضحك في خلاعـــة. وتـــهز ردفيها وهي سائرة، وتظهر شعرها شـــديد الســـواد مـــن تحـــت طاقيـــة الممرضات.

تذكر ما يحكونه في المستشفي: حكايات قدرية ومديحة.

الممرضة التى ضبطوها مع أحد الأطباء فـــي حجـــرة الإفاقـــة. وهـــانم- التومرجية التي تعمل عالمة في المساء. وتغطي شعرها بايشارب. ويبـــدو وجهها الأحمر مدهونا بالأصباغ. وحديثها الواثق لأطباء الامتياز الشبان.

هو لم يفكر في فتاة أو امرأة طوال عمره. كان يدهش عندمـــا يـــرى طالبا يلوح لفتاة في نافذة أو شرفة قريبة. ويدهش أكثر لطالب يسبب مشكلة بسبب معاكسة أمرأه تسكن في مواجهة البيت الذى يسكنونه الآن.

ربما تدينه، وتربية القرية- التى جاء منها- عصمته من هذا. لكن البنـــت مديحة جميلة جدا. يحاول أن يبدو غير مهتم بها. لكنه يضعف.

تقرأ قدرية الجريدة. تحدث مديحة ضاحكة في حيـــاء، شـــاب ريفـــي متدين يقطع "ذكره" بالموس. فيغمي عليه. ينقلونه إلى المستشفى. يقول أنـــه فعل هذا خوفا من الفتنة.

تذكر قدرية حكاية حامد- عامل بوفيه المستشفي. الـــذى قطـــع الإنجلـــيز "ذكره" أيام الحرب العالمية، كان شاباً مفتونا بنفسه. لم يزد عـــن الســـابعة عشر. قابله الإنجليز السكارى ومعه امرأة إنجليزية كانت تعشـــقه، وتنفـــق عليه كثيرا. زوجها كان ضابطاً بالجيش الانجليزى يحارب في مكان بعيـــد عن الإسكندرية.

الإنجليز ضربوا المرأة. وأصروا على قطع "ذكره" أمامها.

يبدو حامد الآن حزينا. يتابع الممرضات العاريات في أسي. يقـــترب من الخمسين، لكن لا يبدو عليه، من يراه يظنه في أوائل الأربعينيات.
لقد أراح حامد ذلك العبء، لا زواج، ولا شقة، ولا جهاز، ولا يحزنون.
أتوبيس ٦ أسرع من الترام. يصل إلى المستشفي مبكرا، يدخل البـــاب الحديدي دون عبد المنعم (يحدث هذا مرات قليلة جدا خلال العام)
يجلس خليل فوق مقعده. العمال ينظفون البلاط في الردهـــات والمكـــاتب.
هانم التومرجية تكنس أمام البوفيه. لم يرها تمسح البــــلاط- مثـــل ســـائر التومرجيات أبدا. يقولون أنها تدفع شهرية لعبد المنعم لكي لا تعمل عمـــلا متعبا. وكي لا تعمل وردية الليل. التي تتعارض مع عملها كعالمة.
يأتي عبد الحكم. (وهو طبيب شاب من بلـــدة كفـــر الـــدوار. مقيـــم بالمستشفي). يهمس لهانم:
تترك مكنستها وتضحك بصوت مرتفع.
عبد الحكم مشهور بعلاقاته مع الممرضات الدميمات اللاتي لا يرضي بـــهن أحد، ومع التومرجيات اللاتي يوافقن على ذلك. نوادره مع هـــانم غريبـــة. تسخر منه أمام الجميع. هددها مرة بأنه سيوقع عليها جزاء، كان ذلك أمـــام الممرضات وبعض الأطباء- زملائه- فتحدته قائلة:

- لو رجل، افعلها.

وأضطر أن يجاريها، مدعيا أنه كان يمازحها.
دخل خليل حجرته، جاءت هانم تكنس الحجرة. قالت:

- صباح الخير يا خليل أفندي.

أرادت مرة أن تتباسط معه فصرخ فيها غاضبا وأمرها أن تلزم حدودهـــا وألا تسبب لها في خصم ثلاثة أيام كاملة. وخافت منه ومن يومـــها وهـــي

تحترمه، ظننته مثل عبد الحكم الذى يضعف عندما يراها منحنية أمامه.كل زملائه يسخرون منه لذلك يسمونه "مجنون هانم".

وهو لا يغضب. طوال الوقت يحدثهم عن مفاتنها.

من الممكن أن يحدث لخليل هذا. فهو ريفي مثل الذى قطع "ذكره" خشية الفتنة. ومثل عبد الحكم الذى يعشق هانم التومرجية.

ماذا لو طلب من مديحة أن يقابلها في الخارج؛ فثارت عليه أمام الجميع. وعلمت قدرية صديقتها وعونها. حتما سيصل الخبر إلى أبيها "الجعفري". سيأتي من المطبخ بسكين البصل. ويشده للمدير. وتحقيق والله أعلم بما سينتهي. خصم. ونقل. وفضيحة. وربما تصل لأهله في دمنهور. أو يأتي أبوها بأقاربه الصيادين. فينتظرونه بسكاكينهم وعصيهم.

تأتي قدرية بحقيبتها المنتفخة. معروفة في المستشفي بطعامها البيتى. الباذنجان و الملوخية. لا يعجبها طبيخ المستشفي. لا تأخذ منه سوي البيض واللحم والفاكهة. حتى اللحم تعيد طهيه في بيتها.

قالت له:

- عبد المنعم، أجازه اليوم؟
- لماذا؟
- لأنه لم يأت معك.
- لا. لقد أتيت وحدي في الأتوبيس.
- آه.

ظنها ستسأل عن سبب ذلك. وهل هو غاضب منه. أم لا. لكن المرأة أسرعت قائلة:

- أننا وحدنا الآن. وفرصة لكي نتحدث قبل أن يأتي أحد.

- في ماذا؟

- في موضوع مديحة.

- وما شأني بها؟!

- أنها مناسبة لك. البنت جميلة ومؤدبة. ومنكسرة.

- لكن أنا لا أفكر في الزواج الآن.

- وستظل في حجرتك الصغيرة إلى الأبد؟

أراد أن يصرخ فيها. قالت:

- أنت مثل أخي الصغير. وسأدلك على الطريق المستقيم. أنت وحيد هنا، وفي حاجة لمن يساندك. أدخل في جمعية معي، أو مع أهل مديحة. ومن هذه الجمعيات تستطيع أن تلم نفسك.

قبل أن يجيبها دخلت مديحة مبتسمة. أحست أن قدرية كانت تعمل من أجلها وضعت حقيبتها وظلت تنظر إليه في رضى- وتحدثت مع قدرية حديثا خافتا. ثم قامت قدرية قائلة لهما:

- سأعد الشايْ في المطبخ.

وحده مع مديحة الآن. البنت ترتدي ثوبا مشجرا. يظهر رقبتها الطويلة. أحست- دون أن يقول لها- أنه يحب مثل هذه الفساتين عليها. قامت، قدمت له لفافة بها طعام:

- أستاذ خليل. أمي أعدت...

لم يسمع الباقي. أمسك يدها قائلا:

- مديحة. أريد أن أتحدث إليك.

بهتت . نظرت إلى الباب في خوف؛ وإلى الطرقة التي تسير بها التومرجيات؛ وبعض الممرضات من بعيد. قالت في ضعف شديد:

- أنا تحت أمرك.

- لكن هنا لا أستطيع.

- تقصد...

- أجل.

ترك يدها. ظنها ستصيح فيه. وتقول أنها ليست منهن. وليس كل الطير يأكل لحمه.. الخ.

ابتسمت البنت، وعادت إلى مكتبها. وهي تنظر إليه في امتنان. كان وجهها أحمر. وكأن دموعا تنبثق من عينيها.

قام خليل من مكانه. ارتعشت مديحة. ظننته سيمسكها والطرقة الممتدة أمامهما.. لكنه دس ورقة صغيرة في يدها، بها اسم المحل العام الذى سيتقابلان فيه؛ والموعد.

* * *

لم تقل مديحة كلمة واحدة طوال الوقت، ظلت تنظر إليه في شرود، لا هي مبتسمة ولا غاضبة، إنها لم تقابل رجلاً خارج المستشفي أو البيت. أبوها جعفري. قد تؤدي مثل هذه الأشياء الصغيرة إلى القتل.

لكن خليل أفندي ليس سيئا. ولا شك يريد أن يحدثها في أمر الزواج. كما أن والدها يعجب به. يثني عليه دائما أمام أمها. لعل الرجل أحس بأنه يريد أن يتزوج ابنته.

جاءت عواطف بعد ذلك تحمل أوراقها. كان شعرها ملموما، ومعطفها الأبيض يبدو لامعا. حيتهم في ابتسام، كأنها تريد أن تقول شيئا. جلست أمام خليل. أحس بأنها قد جاءت مبكرة عن كل يوم فرشت أوراقها وهو غير راغب في فتح كشوفه، غير راغب في النظر إليها. ولا إلى أوراقها.

جاء عبد المنعم، أراد أن يعاتبه لأنه لم ينتظره ككل يوم، لكن أحس بأن في الأمر شيئا غير عادي.

مديحة مرتبكة. تنظر إلى عواطف التى أفسدت بحضورها اللقاء. وعواطف، تتابع الجميع وكأنها تتابع مؤامرة كبيرة، وسوف تكتشفها بعد قليل.

خرج عبد المنعم دون أن يبتسم كعادته. كانت قدرية تلح على مديحة بأن تحكي لها عما حدث في غيابها..

لابد أن شيئا قد حدث. فهي تعرفها وتعرف أحوالها. والبنت مصرة على الإنكار. مادام الأمر وصل إلى هذا الحد؛ فلابد من الاحتراس. قدرية تساعدها حقا. لكن من الممكن أن تفشي بأسرارها لو جلست في مكتب أخر أو صعدت إلى سكن الممرضات.

أحست عواطف أنه قد حدث اليوم شيئا. فقدرية صامتة على غير عادتها. ومديحة شاردة؛ ولا تبتسم كعادتها؛ وخليل غير راغب في العمل، ينقل إصبعه إلى اسم للممرضات والعمال الموقع عليهم الجزاء؛ في غير حماس. لولا أن الوقت ضيق، ولابد أن تسلم الكشوف إلى الأجور خلال يومين على الأكثر، لقال لها إنه غير قادر على العمل اليوم، وعليها أن تأتي في الغد.

كان صوت عواطف الرفيع الواهن، هو الذى يشق صوت الصمت في الحجرة من وقت لآخر. خليل لا يجيب. يومئ برأسه. أو يهمس لها. كأنه يحس بالحياء من مديحة. فلا يستطيع أن يسمعها صوته.

فكرت رسمية كثيرا في إنهاء علاقتها بسمير عبد الغفار. لعدة أسباب أهمها: أنها لا تحس معه بما كانت تحسه مع رمضان طالب الطب؛ ولا مع خميس ابن بائع اللبن في حيهم. ولأنه مازال في مستوي لا يروق لها. مؤهل متوسط، ومرتب ضئيل. كما أن أسرته مازالت فقيرة وفي حاجة لمساعدته. هذا، غير غيرته الشديدة عليها. بطريقة تثير أعصابها؛ وتقيد انطلاقها وضحكها ومعاملاتها مع الأطباء الشبان الذين يرغبون في الحديث والمزاح معها.

لكن تفكيرها هذا ينتهي دائما إلى لا شئ. فانها تتذكر،فشلها مع خميس بن صاحب محل الألبان. وأن الحي كله علم بما بينهاُ وبينه (أمها لا تعرف للان حكايتها مع رمضان طالب الطب) كما أن العديد من أهل الحي ينتظرون فشل خطوبتها لسمير. ويراهنون أن هذا سيحدث في القريب.

ولو تركها سمير فمن سيخطبها. كل الذين يعجبون بها يكتفون بحد معين، يصل دائما إلى ما قبل الخطوبة، ومن الممكن أن يصل حالها لحال عواطف رئيستها في العمل.

سمير يتحمل من أجلها الكثير. أمه تعارض تلك الخطبة؛ من أول يوم فكر فيها.

- يا ابني. رسمية هذه ليست مناسبة لك.

ظن أن أمه ستغير رأيها بعد ذلك. لكن الأيام تزيدها إصرارا. فتصرفات رسمية تؤكد رأي أمه.

لا تزورهم إلا في المناسبات.وإذا ما جاءت تتأفف من شقتهم المتواضعة. وترفض أن تذوق شيئا لديهم. كما أن الأم تسمع مع النسوة- في الحي- عن ذهابها لمحل الألبان، الذى يشرف عليه الولد خميس الآن.
وأنها تقف على الناصية تحدث الشبان وتضحك معهم في خلاعة. ليس لها سوى أمها. الأب مات، ولا أخ ولا عم يحكمها.

يغضب أحيانا إذا مازحت أحد الأطباء الشبان. فيحدثها في عتاب، تلوي رقبتها غاضبة ولا تحدثه. يلح بعد ذلك في إرضائها. وتتظاهر بالتثاقل. حتى تلحظ الممرضات- زميلاتها- هذا والموظفون زملاؤه كذلك ولا يملك إلا الرضوخ لها؛ والاعتذار إليها.

تقول بعض زميلاتها:

- حرام عليك. تعاقبيه لأنه يحبك.

تحس رسمية بالكبرياء. فتتمادى في معاملتها السيئة له.

كانت تمني نفسها من وقت إلى أخر. بأنه سوف يأتي اليوم الذى تنهي علاقتها به. دون أن تحس بالندم. أو الأسى. أجل. أن تقابل رمضان؛ الذى كان يسكن الدور الأرضي في بيتهم. ويكون مازال عزبا؛ فيخطبها، أو تقابل طبيب من عائلة كبيرة. يمتلك سيارة غالية. فيعشقها؛ ويتزوجها.
لقد فكرت رسمية في الدكتور عبد الحكم. الريفي الذى يعشق هانم التومرجية، من الممكن أن تغويه. أن تنسيه الممرضات اللاتي يقبلهن في حجرة الإفاقة وتنسيه هانم العالمة لكن هو لم يلتفت إليها أبدا. ربما يخشى سمير خطيبها. وربما يظن أنها لن ترضى به.

ضحكت معه ضحكتها المشهورة. ابتسم لها، ومد يده على كتفها. وقال كلماته العادية عن احتياج المريض لكذا وكذا، ثم انصرف كأن شيئاً لم يكن، حتى عبد الحكم لا يرضى بك!

يتحمل إهانات تومرجية، ولا يهتم بغزلها هي. لذلك فرحت عندما علمت أن ورديتها في غرفة الإفاقة ستكون معه في المساء.

استعدت لهذا، استحمت، وعطرت جسدها كله؛ وبالغت في رسم عينيها بالكحل الذى تجيد أمها صنعه، ورسمت شفتيها، ودهنت وجهها كله. لابد أن تجعله يهواها، ويخضع لها، ستخلع النظارة طوال الوقت ليري جمال عينيها. قالت أمها:

- ذاهبة إلى العمل. أم للقاء سمير خطيبك؟

قالت في استخفاف:

- سمير من ؟!

صاحت المرأة:

- رسمية. أتعودين ثانية للعبك؟!

لكنها أسرعت وأصلحت ما أفسدت قالت:

- كلا. المستشفي سيقيم الليلة حفلاً. بمناسبة يوم التمريض العالمي.

اقتنعت المرأة. وذهبت هي بصورتها تلك إلى المستشفي.

* * *

وضع خليل يده فوق المائدة. ربما تمد مديحة يدها –هي الأخرى– وتلمس يده لكنها لم تفعل. كانت تخجل.حكت له عن زوج أختها. وكيف ظل يتابع أختها من النافذة حتى جاء ليخطبها. قال:

- لم يقابلها قبل الخطوبة؟

قالت متلعثمة:

- لست أدري

لكنها عادت تحكي له عن الهدايا التى كان يجئ بها لها أيام الخطوبة، وعن حفل الخطوبة؛ والبدلة التى كانت ترتديها يومها، ولونها؛ ولون فستان أختها. ثم حفل الزفاف. ثم أطفال أختها الآن. لون عيونهم، وملابسهم، وشقاوتهم، ونوادرهم.

قال لها:

- لماذا تخفين يديك تحت المائدة؟

- لا أخفيهما.

وضعتهما فوق المائدة، لكن بعيدا عن يديه. مر وقت طويل حتى تجرأت يده ولمست يدها. سعدت -هي- كثيرا. عندما أطال في لمس يدها، قالت:

- متى ستأتي لتخطبنى؟

- هكذا، دون إستعداد

- المهم أن تخطبني.

* * *

في الصباح، سار حتى "محطة مصر" لم يركب أتوبيس (٦). لكن ذهب إلى موقف الترام. وقابل عبد المنعم هناك. قال له:

- قابلت مديحة بالأمس.

- خير ما فعلت.

- تريدني أن أخطبها.

- أتظنها تفكر في شئ غير هذا.؟!

- والعمل؟!

ضحك عبد المنعم طويلا:

- قلت لك رأيي من قبل. دع مديحة لمن يناسبها.

جاءت الترام. أراد خليل ألا يركبها: ويظل يتحدث مع عبد المنعم؛ لكنه أسرع وركب. فأضطر خليل أن يتبعه.

الزحام شديد، فلم يستطيعا تكملة الحديث. إلا عندما هبطا من الترام؛ أمام حلقة السمك.

- تريد رأيى يا خليل أفندي؟

- أعرفه. مديحة لا تصلح لي.

- ذلك أمر بديهي. لكن أنا أريد أن أنهي مشاكلك كلها.

- كيف؟

- أبحث عن زوجة جاهزة. حالتها المالية متيسرة، تمتلك شقة.. إلخ

- لا أريد سوى مديحة.

- لو قابلتها كثيرا في الخارج "الجعافرة" قد يقتلونك أمام المستشفي.

قال جملته الأخيرة وهو يضحك. اقترب من الباب فصمتا.

دخل خليل الحجرة. قدرية تعد الطعام، ومديحة تساعدها. قالت قدرية:

- تفضل يا أستاذ خليل.

ومديحة اكتفت بالنظر إليه في أسي. مما أقلقه. عندما انفرد بها. سألها:

- أراك حزينة. حدث شئ.

- لا. لكنني آسفة لمقابلتك في الخارج.

- لماذا؟

- لأنك لم تحدثني عن الخطوبة.

ضحك في استخفاف...

* * *

لقد استطاعت رسمية أن تلفت نظر عبد الحكم.

حجرة الإفاقة ليس بها سوي المخدرين من أثر "البنج". مرضى بين الحياة والموت.وعبد الحكم يمر بين الأسرة ليري حالة كل مريض. وهي تتبعه. شعرها يطل من فوق طاقية الممرضات ونظارتها في جيبها. ستلبسها عندما تحتاج لقراءة شئ.

رداؤها معقود من فوق الصدر، يكشف عن الثديين البارزين، والكمان مرفوعان حتى عضديها.. وعبد الحكم تؤثر فيه هانم التومرجية. تتعمد أن تنحني أمامه، فيلهث خلفها والعرق يتصبب من جبهته. فما بالـه برسمية الجميلة.

انه لم يستجب لها أول الأمر. لأنه لم يفهمها. وخشي أن يبدأ هو. فتغضب. وهو يعلم أن خطيبها سمير غيور عليها. وعبد الحكم. ليس في حاجة لمشاكل. فقد حذره المدير مرات من قبل لأفعاله الرعناء مع هانم ومع بعض الممرضات اللاتي يعجز عن ذكر علاقته بهن أمام زملائه لدمامتهن. لكن. ها هي البنت ترمي نفسها عليه، تلتصق به بجوار مريض يلهث، ربما لن يعيش حتى الصباح.

المستشفي صامت. الممرضات الساهرات ينمن في حجراتهن. وفوق مكاتبهن. والمرضى نيام، والجو هادئ. وحجرة الإفاقة. ليس مسموحا بدخولها لكل من هب ودب.

امتدت يده إليها في ارتعاش. لكنها مدربة على مثل هذه الأشياء. دفعت يده بصدرها حتى جعلتها تلمس حافة السرير. أنها دعوة لعبد الحكم. لم تقدمها له واحدة من قبل.

الجميلات -مثل رسمية- يهربن منه لرعونته. وأفعالـــه المفضوحـــة فـــي المستشفي.

رفع يده، ثم خلع طاقيتها. ابتسمت له. قبلها. ويده تلمس المريـــض. قبلــت هي يده في تلذذ.

* * *

في الصباح دخل أحد العمال (واسمه جاد) الحجرة لينظفها. وجدهمـــا معا في وضع مخل. يصعب وصفه وشرح ما فيه.

أسرع الرجل دون أن يلحظاه. فقد كان يكرههما معا. فالطبيب أفعالـــه زادت عن الحد. وهى تتباهى بخلاعتها حتى أمام خطيبها المسكين.

لهذا. ارتعش جسد الرجل كله، وأقسم أن يخبر رئيسة جهاز التمريض بمـــا حدث. أو يخبر عبد المنعم رئيسه المباشر.

ترك الرجل عمله. وظل واقفا بجوار باب المستشفي الداخلي. عندمـــا دخلت عواطف. وهي تأتي عادة مبكرا. أسرع الرجل اليها:

- يا ريسه. يا ريسه.

قالت في ضجر:

- يا فتاح يا عليم. ماذا بك؟

مرت في الردهة التى يجب أن ينظفها قبل أن تأتي. صاحت به:

- لماذا لم تنظف البلاط؟

قبل أن تصرخ فيه -كعادتها- صاح:

- لقد رأيت مشهدا، جعلني لا أستطيع فعل شئ.

صاحت غاضبة:

- لا أقبل أعذارا. العمل عمل.

ضاق بها، وأحس بأنه سيضر بها فوق الأرض، بوجهها النحيل. ويترك المستشفي كله بما فيه. صاح غاضبا:

- أنا دمي حار. ولا أقبل العوج. لقد رأيت الدكتور عبد الحكم. والممرضة رسمية في وضع مخل.

وشرح لها ما رآه.

قالت في هدوء شديد:

- أذهب إلى عملك الآن. وتعال إلى بعد ذلك.

خلعت ملابسها. وجسدها كله يرتعش. لقد فاض الكيل من البنت رسمية. أنها لا تهتم بشيء. أما عن عبد الحكم. فهي لا تستطيع معه شيئا. فأمره متروك لمدير المستشفي. لكنها لن تصمت عن هذا أبدا.

عندما دخل مدير المستشفي حجرته. أسرع بعض الأطباء اليه. ثم دخل خليل لعرض أمر مالي عليه.وجلسوا جميعا حوله. كان الرجل يضحك معهم حين دخلت عواطف بردائها الأبيض الفضفاض، وخلفها عم جاد. قالت دون أن تحيى أحداً:

- عم جاد يريد أن يحكي لكم عن مشهد رآه في حجرة الإفاقة.

دهش الجميع لطريقتها. قال المدير لأحد الأطباء:

- من الطبيب المسئول عن حجرة الإفاقة ليلة أمس؟

- عبد الحكم.

فهم الرجل ما تريد قوله. وسألها :

- من الممرضة التى كانت تسهر معه؟

- رسمية.

لقد أهدر الرجل ما كانت تريد فعله. جعل فورانها يأتي إلى لا شئ.

- اكتبي لي يا عواطف بما حدث.
- قالت في تحد:
- بل سيحكي عم جاد عما رآه، أمامكم جميعا.
- ليس هناك داعٍ لهذا.

لكن طبيبا. اشتاق لمعرفة ما حدث. فأسرع قائلا لعم جاد:
- احك يا رجل ما شاهدته...

****

أراد المدير أن يصعد التحقيق إلى الشئون القانونية لمديرية الصحة بالإسكندرية. وينال عبد الحكم ورسمية ما يستحقان من عقاب. وحتى لو كان الفصل. لكن أطباء عديدين ألحوا عليه بان يكتفي بمجازاته بخمسة أيام.

وشاع الخبر في المستشفي. أكدت قدرية أن عواطف فعلت هذا؛ وبالغت فيه لأنها معقدة. لدمامتها وبقائها عانسا حتى هذا العمر.

لكن آخرين دافعوا عن عواطف، وقالوا أن عبد الحكم ورسمية يستحقان أكثر من هذا لاستهتارهما الدائم.

ووصل الخبر إلى سمير عبد الغفار. أغمي عليه في مخزنه. فحملوه إلى الاستقبال، وأوصي الطبيب بحمله إلى البيت والا يأتي إلى العمل أسبوعا بأكمله. حتى يرتاح من الصدمة.

وشاع الخبر في الحي أيضا. فحيهم قريب من المستشفي، وممرضات وعمال كثيرون ممن يعملون في المستشفي يسكنون ذلك الحي.

صرخت أمها وقالت:
- كان قلبي حاسس. وأنت تفرطين في التجمل.

جاء خالها من سيدي بشر وضربها، وأقسم الا تذهب إلى المستشفي ثانية، لكن بعد أن عاد الرجل إلى سكنه، تعاملت الأم معها على أن تعود إلى عملها. فليس هناك أمل سواه. فمن أين ستعيشان. ودخلها من البيوت القليلة لم يعد يكفي طموح رسمية الدائم.

ذهبت الام إلى أم سمير. لتؤكد لها أن ما يقال عن ابنتها ليس إلا محض افتراء؛ وادعاء كاذب. لكن أم سمير قالت:

– بعد هذه الفضيحة. لو تزوج ابنتك. سأتبرأ منه العمر كله.

وعادت المرأة كسيفة. قالت لابنتها:

- حتى سمير الذى كنت تتكبرين عليه. لا يريدك الآن.

راود الفتاة أمل أن يأتي عبد الحكم لخطبتها بعد ما حدث بسببه وتكون بذلك قد نالت ما تتمنى. لكنها عادت إلى المستشفي بعد يومين غابتهما بدون إذن. اكتشفت أن مدير المستشفي. قد أقنع عبد الحكم بأن يقدم طلبا بنفسه للنقل إلى مستشفي آخر. حتى يبدأ حياته العملية بصورة جديدة. على أن يلغي الخصم الذى وقعه عليه.

بعد أن عاد سمير إلى المستشفي. أكد للجميع أن هذا الحدث قد أزال كل حبها من قلبه، وأن لو انطبقت السماء على الأرض. لن يرجع إليها أبدا، فكفاه ما نال منها. وأكد البعض على قوله.

لكن عبد المنعم قال لخليل وهما ذاهبان إلى الترام:

- لا تصدقه. لو أتته رسمية. سيخضع لها من جديد. وسينسي ما حدث.

وحدث ما توقعه عبد المنعم. فدون أن يدري أحد كيف تم هذا. أعلن أن حفل زفاف رسمية الخميس القادم "في مسرح "الأنفوشى".قال هذا للذين كان يؤكد أمامهم رفضه لها.

* * *

قابلت رسمية سمير وهو عائد من المستشفي. بكت أمامه. وأقسمت أن ذلك لم يحدث. وإنما عواطف هي التي صنعت هذا كله. أعطت نقودا لجـاد حتى يقول ما قاله.

يعرف سمير أن عواطف لم تكذب وأن جاد ليس بينه وبيـــن رســمية مـــا يجعله يدعي عليها. رغم هذا ضعف. وادعي أنه يصدقها. وكان لابد من لم الموضوع وانهاءه.فألحت أمها عليه بأن يتزوجها في أقرب فرصة. ولـــو في بيتهم مع أمه. لكن أمه عارضت هذا بشدة، فهي لا توافق على الـزواج من أساسه، فكيف تقبل تلك الداعرة في بيتها. فاضطرت أم رسمية أن تعـد لهما سكنا في شقتها. خاصة أنها تعيش فيها وحدها مـــع ابنتيــها. ووافـق سمير. فالمهم عنده. أن يتزوج رسمية.

* * *

في مسرح الأنفوشي، ارتدت مديحة أجمل فساتينها. وظلت تنظر إلى الباب لترى خليل فهي لم توافق على مقابلته ثانية خـــارج المستشــفي، ففضيحـة رسمية جعلتها تخاف. خاصة أن أباها بعد أن علم بما حدث ركبه عفريـت. كان عصبيا معها. وكان يسألها بإلحاح. إلى أين تذهـــب. وأحيانــا. كــان يرفض خروجها بعد الظهر وحدها.

ودخل عبد المنعم -وهو يرتدي بدلة شيك أهداها له أحـــد الأطبــاء- ومعه خليل، كما توقعت مديحة. كانت تجلس وسط بعـــض الممرضــات. فقدرية -زميلتها- تجلس بجوار زوجها وأطفالها بعيدا.

أقتربا منهن. قامت مديحة سعيدة. لامست يدها يد خليـــل. ضحــك عبـد المنعم. قال له بعد أن ابتعدا:

- البنت مازال عندها أمل.

لم يجبه خليل. فلقد مل الحديث في ذلك الموضوع. البنت لا سيرة لــها إلا الخطوبة. كما أنها في لقائه الأول. كانت مملة وساذجة.

سمير عبد الغفار فرح. يسير وسط زملائه كالطاووس. يعانق البعض، ويقبل البعض، ورسمية تنظر من علياتها إلى زميلاتها. جسدها مندس فــي رداء ضيق، كأنها سمكة يغطيها القشر.

لقد انتهي الأمر وتزوجت سمير صاحب المؤهل المتوسط والراتب القليــل. حتى الشقة لم يستطع الحصول عليها.

سار خليل وعبد المنعم خارج المسرح. جلسا على حافة الكورنيش. اشتري خليل ذرة مشوية. قال عبد المنعم:

- إنني سعيد لأنك صرفت نظر عن موضوع للبنت مديحة.

لم يجبه. أكمل:

- لقد فكرت في أمرك طويلا. فوجدت الأنسب لك أن تتزوج عواطف.

- من عواطف هذه؟

- رئيسة جهاز للتمريض.

ضحك خليل طويلا:

- لديك حق. الأمر وصل إلى حالة مضحكة.

- إنني جاد فيما أقول.

- أنا أتزوج عواطف. إنها مومياء فستان فوق قوائم خشبية.

- دعك من هذا. فجسدها سيمتلئ بعد الزواج.

- عبد المنعم. بريك. دعنا من ذلك الحديث. فقد مللت. ولدى إحســـاس بأنني سأخرج على المعاش وأنا في حجرتي الصغيرة مع الطلبة.

ضحك عبد المنعم:

- ليتك تفعل هذا. ستجد أجيالا كثيرة من الطلبة.

لم يجبه خليل. أخذ يقضم الذرة المشوية في صمت

- أنت تتعذب مما تراه في المستشفي أمامك. أعرف هذا دون أن تشكو لي، تحسد عبد الحكم.

- أجننت. أنني أصلي الوقت في وقته.

- أعرف. ولهذا. أريدك أن تتزوج. لتظل كما أنت.

لم يدخلا المسرح ثانية. سارا بجوار البحر. وضع خليل يديه في. سترته، وشرد طويلا. وعبد المنعم مازال يتحدث عن مشروعه.

- الزواج ليس له صلة بالجمال والقبح. أجدادنا تزوجوا دون أن يروا زوجاتهم. وكانوا يخدعونهم. ويغيرون العروس المتفق عليها، في ليلة الزفاف. رغم هذا أكملوا المشوار وانجبوا. بل واحبوا زوجاتهم. حتى إن لم تكن الزوجة جميلة، فستعتادها؛ وستحس انها مثل غيرها. صدقني.

- أرجوك، كف عن هذا الحديث الآن.

* * *

جلست عواطف أمام خليل قالت قدرية لها:

- لقد كنت السبب في تعجيل زواج رسمية من سمير عبد الغفار بفعلتك.

أحست عواطف بالضيق من طريقتها في الحديث.

- كلمة "فعلتك" هذه قبيحة. كأني أنا التى فعلت ما حدث.

- لا أقصد...

لم تجبها عواطف. أدارت جسدها في عصبية. وتحدثت مع خليل في العمل. كانت أكثر جدية من كل مرة.

أحس خليل بالضيق منها. تابع وجهها طويلا. زمت شفتيها الرقيقتين من الغضب. تحدث معها في جدية شديدة هو الأخر. كان جو الحجرة كئيبا. الكل يتحدث همسا.

نسيت عواطف متابعتها لعينى خليل وهي تبحث عن مديحة. ورأس مديحة الملوي نحوه.

أهو الغضب الذى أنساها هذا. أم أن الموضوع إنتحي منحي أخر. أجل، فهي لم تعد تجد تطورا لهذا. لم يحك لها أحد عن علاقتهما معا. أو أنه سوف يخطبها في القريب.

عندما عادت إلى البيت. وجدت والدها لم يتناول غداءه، رغم أنه يتناوله وحده عادة. فهو مضطر لأكل المسلوق. كما أن الضغط والسكر يفرضان عليه طعاما لا يتناسب مع إبنته. لكن هذه المرة أحس برغبة في أن يأكل معها.

قالت له عن تطورات موضوع رسمية وسمير. وكانت قد حكت له من قبل عما حدث. قالت له إن البعض غاضب مني، لأني أفشيت سرهما.

قال لها:

- دعك منهم. ألست راضية عما فعلت؟
- كل الرضا.
- هذا هو المهم.

لم تعد تحكي له عن تطورات العلاقة بين خليل ومديحة. أرادت أن تقول له إنه لم تحدث تطورات بعد ذلك. كما كانت تتوقـــع. لكــن أحســت بـــأن الموضوع بهذا الشكل لا يستحق الذكر..

• • •

أحست عواطف أن عبد المنعم يمر أمام حجرتها ويبتسم. ثم يحييـــها ويسير. قالت لنفسها:

- لابد أنه يريد شيئا.

الكل في المستشفي يعلم أن راتبـــه صغــير وأولاده كثــار وفــي حاجــة لمصاريف. لهذا كانوا يعطونه دون أن يطلب. أخرجت من حقيبتها مبلغـــاً من المال. وضعته في الدرج حتى إذا جاء ثانية، دسته فـــي يــده وهــي تصافحه كعادتها.

لكن عبد المنعم دخل هذه المرة وجلس. أخرجت النقود "وأعطتها لــه". ابتسم.ووضعها في جيب قميصه. ولم يخرج. قال:

- أريد أن أعرض عليك عرضا. واخشي أن أغضبك.

- ماذا تريد؟

- ما رأيك في خليل أفندي؟

ارتبكت. أول الأمر. ظننت أن خليل هذا يريد أن يتزوجها. لهذا أرسل عبـد المنعم ليعرف رأيها. ثم اندهشت بعد ذلك. فهي تجلس أمام خليـــل مــرات كثيرة. لم تلحظ عليه أدني اهتمام بها.

- إنه شاب طيب. لكن ما شأني أنا بهذا؟

- ما رأيك فيه كزوج؟

- تقصد. أنه يريد أن يتزوجني.

- هو لم يطلب. لكن أستطيع أنا أن أؤثر عليه، فيطلب.

دهشت منْ صفاقته. ماذا يريد منها، لقد أعطته مالاء أيريد أكثر؟!

- أنا مندهشة من طريقتك في الحديث. كيف تصل بك الجرأةوتقول هـذا أمامي.

- اهدئى قليلا. تعلمين أنه صديقي الوحيد. واحبـــه. وأريــد إسـعاده. وسعادته معك أنت.

- تسعده بعيداً عني.

ثم قامت في عصبية.

- تفضل. إن كنت اتباسط معك في الحديث؛ فليس معناه أنني ...

- كفي. كفي. فكري جيدا في ذلك الموضوع.

صرخت فيه:

- اخرج. اخرج.

أسرع إلى الخارج. لم يجد أحداً قريبا من حجرتها. وإلا أسرعوا – علـــى صوتها– ليعرفوا سبب ثورتها.

لكنه كان راضيا عما فعل. فهو يعرفها جيدا. تتوق للزواج. حتى لو دفعـت من ثروتها الكثير. وهو في حاجة لجزء من ثروتها. وخليل زوج مناســب جدا لها، ريفي لم يجرب النسوة الجميلات. لم يعاكس سوى مديحـــة فـــي جلسة حب بريئة انتهت بالفشل.

لم يقبل في حياته امرأة سوي أمه. لن يحس بأن عواطف شئ مختلف عــن باقي النساء..

* * *

اقترب من خليل. وهو يجلس فوق مكتبه ، همس في أذنه قائلا:

- لقد حدثت عواطف عنك.

نظر خليل إلى مديحة المنشغلة بتجميع كشف أمامها. وقدرية تكتب مذكرة:

- ماذا قلت لها؟

- سألتها أن كانت توافق عليك كزوج. أم لا.

- لولا أننا في العمل الآن. لقمت وضربتك.

- انني أعمل لمصلحتك. أيكون هذا جزائي؟!

قال جملته الأخيرة بصوت مرتفع وهو يضحك. ويخترق الحجرة. نظرت المرأة والفتاة إليه وابتسمتا.ظنتاه يمزح كعادته.

أسرع خليل خلفه

- عبد المنعم. أنا لا أسمح لك بالتدخل في شئوني بهذه الطريقة.

- شئونك هي شئوني. وأنا أدري منك بالحياة.

- تريد أن تقتلني كمدا. وتقول أدري..

امتلأت الردهة الكبيرة بالأطباء والممرضات الذاهبات إلى عملهن فلم يستطع خليل أن يستمر في ثورته. عاد حزينا إلى مكتبه.

أخذ يقضم أظفاره حزينا.

قبل الثانية بقليل بحث عبد المنعم عنه. ليذهبا معا ككل يوم، لم يجده

- ٥ -

عادت رسمية إلى المستشفي؛ بعد أجازة الزواج. بالغت في إظهار جمالها وسعادتها، ضحكت ضحكتها المشهورة في الردهة الكبيرة. أخذت تثني على الزواج وما فيه من سعادة وجمال، حتى احمرت وجوه البنات اللاتي لم يجربنه؛ ضربتها قدرية على كتفها في خجل:

- عيب يا بنت. الفتيات أحمر وجوههن خجلا.

وقالت أخري:

- داري على شمعتك ، ليست المستشفي كلها تريد لك الخير فقد تحسدك واحدة تعيسة في حياتها الزوجية.

وظهر سمير عبد الغفار في بذلة جديدة غير التى رأوها عليه في الحفل. أخذ يقفز من مكان إلى أخر. يحدث الأطباء ضاحكا. ويداعب الممرضات متمنيا لهن زواجا سعيدا مثل زواجه.

وعندما رأي عواطف. أسرع إليها وصافحها. قالت له:

- آسفة، لم أستطع حضور حفل الزفاف.

وجاءت رسمية اليها. صافحتها. حاولت أن تبدي سعادتها مع سمير أمامها. داعبته. فتضايقت عواطف، وأسرعت إلى مكتبها.

* * *

لم تكن رسمية سعيدة في زواجها رغم أنه لم يمر على الزواج سوي أيام معدودات.

فالعيش في نفس الشقة التى ولدت بها، وعاشت فيها بعد الزواج، يسبب الملل والضيق. كما أن أمها لا تترك الشقة. فقد أقعدتها السمنة. وجعلتها

تتحرك بصعوبة. فأصبح حديثها وضحكتها مع سمير همسا، خاصة أن المرأة تجلس فوق كنبتها في وسط الشقة. بين حجرة نومهما، ودورة المياه التى يستعملانها..

فعند خروجهما من حجرة النوم. لابد أن يمرا من أمامها.

قالت رسمية لسمير بعد أيام قلائل:

- لابد أن تبحث عن شقة. أنا ما عدت أطيق.

- لديك حق. إنني أخجل من وجود أمك الدائم في الصالة.

أحست الأم بما يعانيان، لكنها لا تملك من أجلهما شيئا. وكفي تضحيتها من أجلهما. فقد أتيا ليضيقا عليها الشقة الصغيرة.

بالأمس، أوصتها أمها قائلة:

- يجب أن تظهري أمام زميلاتك بأنك سعيدة في زواجك. أياك أن تشتكي لأحد من شئ.

وأظهرت رسمية عكس ما تحس. وأدي هذا إلى زيادة عذابها. فهي لا تطيق سمير. وتمنت لو لم تتزوجه؛ رغم كل ما حدث. تمنت لو كانت نقلت من المستشفي مثل عبد الحكم؛ فربما كانت ستجد هناك من تبحث عنه..

* * *

بكت عواطف كثيرا. عيناها الذابلتان احمرتا. أحس أبوها بها. شدها إليه. قبلها

- ما الذى يشقيك؟

لم تحك له عما فعله عبد المنعم. لكن في اليوم التالي حكت له عن خليل. عن سكنه في حجرة من حجرات الطلبة التى تشبه الزنازين. وعن لهجته الريفية. وقوته التى تحكي المستشفي عنها. وطيبته.

- تصور يا بابا عندما عمل في المستشفى، ضحك عليه عبـد المنعم، أفهمه أن اللانشون به لحم خنزير. وأكل سندوتشاته.

حكت لأبيها عن حب خليل الفاشل لمديحة. تذكر والدها حكاية مديحة ورئيسها الذى يتابعها. قال لابنته:

- لقد حكيت لي جزءا من هذه القصة منذ شهور.

أرادت أن تقول له أن هناك مشروعا للزواج منه؛ مؤامرة سيدبرها عبد المنعم. وستدفع أتعابها. لكي يؤثر عليه ويتزوجها.

أحست بالضيق، لأنها كانت تتابع علاقته بمديحة باهتمام وشغف؛ وتمنت أن ينتهي الموضوع بالزواج؛ ليصدق حدسها. كيف فكرت في هذا. لو كان تزوج مديحة. أكان سيأتي عبد المنعم ليعرض عليها ذلك العرض؟! فكرت فيه رغما عنها. شفتاه الكبيرتان تتحدثان كالهمس. أنفه المفلطح وشاربه الكث، وقميصه ذو الياقة العريضة. التى يظهر منها شعر صدره الكثيف. أرادت أن تنام لكن النوم لا يأتي.

في الصباح تأكدت أن شعرها ليس مهوشا. وأن خديها قد أحمرا بفعل المساحيق. وأن الحذاء العالي قد رفعها قليلا.

دخلت بهو المستشفي الكبير وهي ترتعش. بحثت عن خليل. قالت:

- صباح الخير يا خليل أفندي.

أجل. هو دون غيره في الحجرة. مما جعل الجميع يتساءل عما حدث. قال هو لمديحة وقدرية:

- لقد انتهينا من عمل كشوف هذا الشهر. فماذا تريد مني؟

أسرعت إلى حجرتها. تلكأت في ارتداء معطفها الأبيض. ماذا سيحدث لو ظلت بفستانها هذا.

دخلت حجرة عبد المنعم. نظرت إلى البهو الكبير. في الخارج، لم تجد أحداً يتابعها. قالت له:

- لقد فكرت فيما قلت لي.
- ووافقت؟
- أجل. وسأدفع لك أتعابك. جزءاً الآن. والباقي بعد إتمام العملية.

ثم وضعت النقود على المكتب. أخذها فرحا. ثم قال:

– لا أريد نقوداً– كل ما أريده هو سعادتك وسعادته

أحست بفقدان التوازن وهي تسير؛ ما الذى حدث لها؛ أجنت حتى تفعل ما فعلته.

رأت رسمية تشد ثوبها الضيق حول جسدها الرائع. وتنظر إليها في استخفاف. تمنت لو أوقفتها وصفعتها، ويحدث ما يحدث. لكنها أحست بالعجز. أول مرة تحس بأنها أقل من تلك المرأة اللعوب. لقد كانت تحتقرها لتصرفاتها الرعناء. الآن تحس بأنها غير قادرة على الهجوم. كبرياؤها الذى كان يدفعها لاحتقار رسمية، ومن في مثلها. لم يعد موجودا.
أسرعت إلى حجرتها في عصبية. ليتها لم تأت اليوم. حتى لا تقابل عبد المنعم. وتفعل ما فعلته.

* * *

وضع عبد المنعم يده في ذراع خليل. قال:

- ماذا تري لو سرنا حتى المنشية. ومن هناك نركب الأتوبيس.

يعرف خليل أنه لا يحب المشي. فلابد أن في الأمر شيئا

ساراً معا– قال عبد المنعم:

- لقد زاد الزواج رسمية جمالا.

لم يجبه خليل. فرسمية تذكره -بأنوثتها الطاغية- بالشاب الريفي المتدين الذى قطع ذكره خشية الفتنه. لم يقل الخبر من أي قرية كان هذا الشاب. من الممكن أن يكون من قرية قريبة لقريتهم. كما اتضح أن عبد الحكم من قرية قريبة لدمنهور -بلده-

قال خليل بعد ذلك:

- أحيانا. أحسد حامد عامل البوفيه.

ضحك عبد المنعم:

- وما الذى يمنعك؟

لم يجبه خليل. أحس بان حياته المرتبكه. قد تؤدي به يوما إلى عمل مثل هذا. قال عبد المنعم:

- الغريب في الأمر. أن حامد عندما عمل بالمستشفي. كان يهتم بالبنات الممرضات. ويعرض عليهن الحب. وأن يقابلهن خارج المستشفي. وكان يعطى هانم التومرجية الأشياء دون مقابل لكى توافق على مرافقته، وشاع في الشركة "إنه زير نساء" حتى جاء عامل من حيهم. فأفشي سره الغريب. وأكده أكثر من واحد. وتؤكد هانم العالمة أنها تحققت بنفسها من صدق هذا. واتضح أن تصرفاته ما هي ألا تقيم لإظهار عكس الحقيقة.

ثم قال عبد المنعم فجأة:

- ألم تلاحظ أن عواطف تهتم بنفسها الآن كثيرا.
- ماذا تقصد؟
- أقصد أنها تبغي الزواج منك.
- أنت الذى هديتها إلى هذا.

- وما شأني أنا بأمور مثل هذه.

- من أجل المال تفعل أي شيء.

كان خليل غاضبا حقا. وعبد المنعم يتظاهر بالحزن لقوله:

- لقد أسفت لأني سرت معك هكذا. لو كنت أعلم أنك ستهينني. لكنت...

يعرف خليل أن عبد المنعم يتظاهر بالغضب، وأنه لا يتأثر بكلمات مثل هذه، خاصة إذا كان غضبه سيعيقه عن تحقيق غاية يريدها.

سارا معا دون قول. ثم قال عبد المنعم فجأة:

- لم أكن أظن أنك ستقول عني ما قلت، وأنت تعلم أن سعادتك هي غايتي.

- سعادتي. أن تزوجني عواطف؟!

- أجل، هي الوحيدة في المستشفي التى تصلح لك. مال، وشقة تحت أمرك.

- أرجوك. دعنا من هذا الحديث.

حاول أن يتحدث عبد المنعم داخل الأتوبيس. لكن خليل أسرع.ووقف بعيدا عنه...

* * *

لأول مرة يجد دكان عطية البقال مغلقا. فالرجل لا يأخذ أجازة أبدا. قبل العيدين يقف ولد من الطلبة، المقربين إليه، إلى أن يعود. ويكون معلوما لكل الطلبة؛ أن عطية ذهب إلي بيت أخته ليستحم. ويأتي مرتديا قفطانا نظيفا.

وتأكد الجميع أن غلق دكان عطية في النهار معناه أنه قد مات. لهذا شعر خليل بانقباض.

أول ما فعله بعد أن وصل إلى السطح. أن سأل عنه. قال له طالب من المقربين إليه:

- لن تصدق ما حدث؟
- ماذا؟ مات؟
- موته لا يثير الدهشة. عطية تزوج.

ضحك الجميع.

- تزوج من؟
- رتيبة التى تعمل خادمة في البيت المجاور "للبنزينة".

وهي امرأة في منتصف الأربعين تقريبا. كانت تكثر من الوقوف بجوار عطية في الدكان، تحدثه، وتمازحه.

أغلق خليل الحجرة.

- حتى عطية البقال تزوج.

زواج عطية كان ملازما لحديث عبد المنعم عن الزواج. أجل. لابد أن يتخذ موقفا. وإلا وجد نفسه فجأة. وقد تزوج عواطف.

الطلبة يصنعون ضجيجا حوله. أغلق نافذة حجرته المطلة على الجانب الاخر من السطح. لكن الصوت مازال يأتيه رغم ذلك، ولد يغني بصوت قبيح، وأخر يدق صفيحة فارغة،. والبعض يصفق.

كان -في مثل هذه الحالات- يخرج إليهم، فيكفون عما يفعلون، لكنه الآن غير راغب في أن يكون شيخهم.

أرسل إليه صاحب البيت أكثر من مرة، لكي يطالب الأولاد الذين لم يسددوا الإيجار للآن. وهو يتكاسل. يقابل الطالب الذى لم يسدد الإيجار. ويتذكر كل شيء. لكنه لا يحدثه عن هذا.

أن فشل في أمر الزواج. سيسافر إلى دمنهور.وإلا جـن فـي هـذه المدينة.

حاول أن يصحو مبكرا. ليقابل مديحة على انفراد. لكـن لحظـه السيئ، استيقظ متأخرا، دخل الحجرة فإذا بقدرية تنظر إليه بوجهها الممتلئ.وعـدد من العمال يقفون أمامها. يسألون عن المبالغ المستقطعة منهم. نظـر إلـى مديحة. وجدها مشغولة بعملها. أراد أن يسير إليها. لكنها لم تعرهْ اهتماما. أضطر أن يسير حتى مكتبها. ويهمس لها:

- أريد أن أقابل والدك.

ضحكت:

- والدي يعمل في المطبخ الآن.

- لا. لن أحدثه سوى في البيت.

فرحت البنت؛ انتظرت حتى خرج العمال من الحجرة؛ وقالت لقدرية عمـا حدث..

* * *

قالت لأمها أن رئيسها في العمل. سوف يأتي ليخطبها اليوم.

خرجت المرأة إلى جيرانها. أخبرتهن فرحة. ساهمت أكثر من امـرأة فـي كنس البيت. ومسح بلاطه من أول باب البيت حتى الشقة التـي تسـكنها مديحة. وذلك لا يحدث إلا قبل العيدين؛ والمناسبات الهامة. مثل ذلك الـذي سيحدث اليوم.

وأصرت المرأة أن يقوم زوجها بخلع لباس المستشفي الذي ينـام بـه؛ ولا يخلعه إلا حين يستحم. أو إذا ألحت امرأته في أن البدلة اتسخت وفي حاجـة إلى غسيل.

جلس الرجل بقفطانه الأبيض. فوق الكنبة؛ منتظرا خليل أفندي؛ الذي سيصبح صهره.

جاءت فتاة مخطوبة، تسكن في الشقة العليا، لتشرف على تجميل مديحة، وضعت وردة حمراء في شعرها الطويل الذى أثنى عليه خليل أمام العديدين في المستشفي.

وجاء خليل، قابله والدها الذي يعرفه، ويقابله في المستشفي كثيرا، والذي كان يصر على الوقوف كلما تحدث معه.

أحس أنه رجل آخر، غير الذي يراه في المطبخ؛ رابطا "مريلة" المطبخ في رقبته. تحدثا في أشياء كثيرة. عن المستشفي والطقس؛ ثم بعض الأحداث العالمية، ليظهر أمام خليل بأنه مثقف ويعرف قراءة الجريدة.

وأم مديحة تغلي في الخارج. لأن الرجل الآن؛ لم يحدثه عن شروطهم في الزواج، فمادام يحبها كل هذا الحب، ويأتي إليهم على "ملأ وجهه"، فلابد أنه سيفعل ما يريدون. خاصة أنه رئيسها، وراتبه كبير. وربما أسرته غنية أيضا.

حكي الرجل عن حياته. أقاربه الجمافرة الذين يعملون في البحر. عمل معهم في صباه. كان يشد حبل "الجرافة" على الشط. ويشترك معهم في دخول البحر. لكن مات أمامه أكثر من واحد، غرقوا في البحر، كانوا ينتظرونهم على الشواطئ. في انتظار أن يرمي البحر بجثثهم. وتصبح أسرهم بلا عائل، ولا يجدون شيئا. لا معاش ولا مكافأة، ولا أي شيء.

لهذا، أصر أن يعمل في الحكومة. حيث الأمان. راتب شهري، وإذا مرض، أو أصيب، يحصل على العلاج والأجر أيضا. لقد أصبح بعض

الذين بدأوا العمل معه في البحر تجارا كبارا. لكنه غير نادم. فقد غرق أيضا. بعضهم. وأسرهم الآن لا تجد عائلا.

والزوجة في الخارج تلعن الزوج وغباءه، هل هذا وقت حكايات عن الصيادين. من نجح فيهم واغتني، ومن غرق ومات. كادت تتدخل وتجلس معهما، تقول ما تريد قوله، لولا أن بدأ خليل حديثه. قال أنه يريد أن يقترن بمديحة. بعد أن أعجب بأخلاقها.

رحب الرجل، وفاض في مدح خليل، ثم قال:

- رحم الله امرأ عرف قدر نفسه، يا خليل أفندي، الذي أوله شرط أخره نور. ونحن كما تعلم. حالنا على قدنا. والفقر ليس عيبا. وما عيب إلا العيب.

قالت مديحة لأمها- خارج الحجرة-

-أكان يجب أن يقول أبي كل هذا.

- اصمتي يا بنت الرجل وقع في حبك ولهذا سوف يفعل ما سنقوله له.

- أنا يا خليل أفندي. ولا تؤاخذني. لا أستطيع أن أقدم مليما لابنتي. يكفي أنني سأحرم من مرتبها الذي يعينني على تربية أخوتها الصغار.

- ذلك الحديث سابق لأوانه. المهم الموافقة، ونناقش هذه الأشياء بعد ذلك.

الرجل أوصته امرأته. بأن يقطع عرقا ويسيح دما. ولا بد أن ينتهي من ذلك الأمر الآن. لهذا قال:

- لا يا خليل أفندي. لابد من الاتفاق من الآن. فأنت زميلي في العمل. وأي مشاكل بيننا بعد ذلك. -لا قدر الله- ستؤثر على علاقتنا هناك.

قال خليل وقد نفد صبره:

- وماذا تريد؟

- ابنتي، ستدخل عليك بملابسها.

- وأنا لا أريد أكثر من هذا.

أحس خليل بالضيق- وتمنى لو قال له "لا أريدها ولا أريد ملابسها". فالرجل كان ثقيلا مملا. وهو أراد فقط أن يهرب من الكابوس المسمي "عواطف" الذي يطارده في كل مكان. حتى تحت غطائه وهو نائم.

أحس بالراحة عندما خرج من البيت. شيعه الرجل حتى آخر الحارة. والمرأة أطلت من نافذتها، تتابعهما وتهمس لجارتها التي تزاحمها النافذة الضيقة...

* * *

كان واضحا للجميع، حتى لمدير المستشفي. أن عواطف قد تغيرت. وشعرها المجعد الذي كانت لا تهتم بلمه، بدا لامعا ومنظما. وملابسها بدت أكثر أناقة، حتى معطفها الأبيض القديم؛ رمته ولبست غيره؛ بعد أن حبكته على جسدها. كما تفعل البنت رسمية. والمساحيق غيرت وجهها؛ أزالت عنه الاصفرار والذبول والكعب العالي، الذي تلبسه حتى وقت العمل، رفعها قليلا فبدت أكثر طولا.

وبعد أن كانت تقضي معظم وقتها في الدور العلوي- حيث حجرتها القريبة من سكن الممرضات تواجدت كثيرا في الدور الأرضي.. من حجرة المدير إلى حجرة المراقب المالي؛ خليل أفندي. وإلى بعض المكاتب الأخرى.

ذلك سبب ارتياحا للممرضات، فلم تعد تلاحقهن بأوامرها وانتقاداتها التي لا تنتهي.

الوحيد الذى فهم سبب هذا التغيير هو عبد المنعم. وحدثها في ذلك دون خجل، ودون مواربة:

-ما تفعلينه الآن- سيسهل مأموريتي.

قالت في حدة:

- ما الذى أفعله؟!

أشار إلى وجهها وجسدها:

- المساحيق، والملابس الجديدة.

- عبد المنعم، لا تتعد حدودك.

- دعيك من الحدة. فمصلحتنا واحدة.

تركته غاضبة. تدق البلاط في الردهة الكبيرة بحذائها العالي في عنف.

لم يضع عبد المنعم وقته، ذهب فورا إلى خليل. كانت مديحة واقفة. وآثار تجميل الأمس واضح عليها. وقدرية تحاول أن تخفف من إحساسها بالإحباط. وتؤكد لها بأن خليل سيوافق على شروط أبيها كلها.

قال عبد المنعم:

- أريدك خارج الحجرة.

- قل ما تريد هنا.

- لا أريد أن يسمعني أحد.

قام خليل. فقد أحس بأنه في حاجة إلى عبد المنعم. بعد لقائه بعائلة مديحة أمس، وأنه بدونه غريب لا يستطيع التصرف وحده.

جلسا في "الكافتيريا" حامد قدم لهما مشروبا.

- والد مديحة كان يحكي في المطبخ عن الشروط التى أشترطها عليك.

- آه..

لم يجبه خليل بأكثر من ال(آه)، أحس بالندم لأنه ذهب إلى بيت مديحة.

- وماذا ستفعل؟

- أنني لا أعرف ما أريد. من الممكن أن أعطي مديحة ما يريد أبوها، لكن جلوسي في بيتهم جعلني أرفض الزواج من أصله. أحسست بهذا قبل أن يقول الرجل شيئا. ولولا أني أخبرت مديحة من قبل. ما كنت طلبت من الرجل شيئا ، كنت سأشرب الشاي دون الحديث في أمر الزواج.

- قدر أنك أحببتها فعلا..فكيف ستتزوجها وأنت لا تملك شيئا.

- دعك من هذا.

- لا، لابد أن تتزوج، وليس أمامك الآن سوى عواطف، ألم تلحظ اهتمامها بنفسها هذه الأيام.

- لا أريد أن أراها.

- أنها لن تكلفك شيئا. الشقة والأثاث وكل شئ على حسابها.

لم يجبه خليل، كان يتابع حامد –عامل البوفيه– المتجهم دائما.

- وكذلك أبوها. أنه رجل كان يشغل منصبا هاما. سيعينك بلا شك، أم تريد أن تصاهر تومرجي؟

أمسك خليل ذراعه:

– بريك، أسكت الآن.

بدت رسمية حزينة. لم تعد تجري خلف زميلاتها الممرضات.، ولم يعد أحد يسمع ضكتها الطويلة. ملت من إظهار السعادة، وهي تحس بالتعاسة.

يصعد سمير إلى سكن الممرضات؛ عندما تكون هي سهرانة. تقابله في وجوم. يسترضيها- تصرخ فيه أمام الجميع.
تسألها زميلاتها عن ذلك ، تقول
أنها قد ملت الحياة معه. لم يضف جديدا إلى حياتها، نفس الشقة، ونفس الأثاث، لم يضف إلى حياتها سوى أساها من وجوده بجوارها.
والحل؟! لابد أن يجد لها شقة خاصة بها. بعيدا عن حيهم الذي يعرف حكايتها مع الطبيب، الذي ترك الحي عندما كاد يتخرج من الكلية، ويعرف حكاية خميس ابن اللبان الذي طردها من دكانه، ورمي نقودها التي كانت ستشتري بها الجبن واللبن.
تريد حياة جديدة. وسمير لا يمتلك سوى راتبه الهزيل.

تأتيها أخبار عبد الحكم. من المستشفي التي نقل إليها، لقد وقع في حبال ممرضة هناك. واستطاعت أن تطويه وتتزوجه. تزوج عبد الحكم ممرضة، بينما هي لم تستطع أن توقع به. بل لم تدم علاقتهما سوى ساعات الليل. وجاءت عواطف لتنهي هذا، وتدمر كل أحلامها.

لم يعد يشغل خليل شئ؛ لا مديحة ولا عواطف، بل أصبح الزواج أمرا سخيفا. لا يجب الخوض فيه.

مر على دكان عطية البقال. كان الرجل يرتدي قفطانا أبيض وشبشبا.
عندما رأي خليل ضمه لصدره فرحا. قال خليل له:

- مبروك زواجك.

الرجل يبدو سعيدا، وجهه أحمر. لحيته محلوقة.

قدم عطية البقال له الرسائل التى ترد إلى الطلبة، على دكانه، من بينها تلغراف لخليل من خاله:

"أحضر فورا. أمك مريضة جدا"

لم يكن يظن الرجل أن التلغراف سيسيئه هكذا.

ماذا حدث يا خليل أفندي؟

- أمي مريضة.

أسرع خليل إلى البيت، بينما الرجل مازال يحدثه. كان يود أن يحكي له عن زواجه، عن زوجته التى كانت تخدم في البيوت بعد موت زوجها. هو الآن "ستتها"، جعلها تعيش فى بيته، أمله أن تنجب له طفلا، أتستطيع بعد هذا العمر الطويل؟!

جمع خليل أشياءه استعداداً للسفر.

أعطي الرسائل لأصحابها، وقال لهم بأنه مضطر للسفر الآن.

التلغراف جاء إلى الرجل في الصباح. لو كان يعلم بأهميته؛ لكان ذهب إلى المستشفي.

كما أن خليل تأخر، قضي وقته مع عبد المنعم، يسير من رأس التين إلى المنشية. يتحدثان عن مديحة وعواطف.

أستقل السيارة في محطة مصر.

في البلدة، أحس بما حدث، أزواج أخواته يتلقون العزاء وخاله أمامهم، بكي قبل أن يصل إليهم.

- لماذاء لم تنتظروني.

- إكرام الميت دفنه يا خليل.

كان خاله غاضبا عليه. لأنه لم يحضر قبل الدفن. ظنه قد تسلم التلغـــراف ولم يأت.

لقد جاء موت أمه في وقت حرج بالنسبة إليه: حيرته؛ أيتزوج مديحـــة، أم عواطف.

لقد حلت أمه جزءا من المشكلة بموتها. فقد كـــان يفكـر فـي أن يـترك الإسكندرية لأصحابها، يعيش في دمنهور يتزوج أي فتـــاة، أولا يـتزوج. على الأقل يرتاح من مديحة وأسرتها التى تظنــــه جاموســة سـيحلبونها، وعواطف التى تشبه خيال المآته، وعبد المنعم الذي يطـــارده بابتســامته وحديثه. ونصائحه.

* * *

أتصل خليل بالمستشفي، طلب عبد المنعم وأخبره بما حدث..وطلـــب منه أن يكتب له عن أجازه أسبوع.

جاءته تلغرافات كثيرة من العاملين بالمستشفي منهم المدير وبعض الأطباء، وتلغراف من عواطف ومديحة، رغم أن تلغرفيهما قد جاءا وسط عدد كبير من التلغرافات المرسلة من الطبيبات والممرضات إلا أن خليل أهتم كثـيرا بهما وقرأهما مرات عديدة. كأنهما رسالتان خاصتان.

جاءه عبد المنعم في اليوم التالي للوفاة. حاول أن يخفي ابتسامته. لكنـه لم يستطع. عندما كان ينفرد به كان يمازحه ويضحك.

* * *

عندما عاد خليل إلى عمله- كان جو الحجرة كئيباً. قدرية أدارت مؤشر مذياعها الصغير على إذاعه القرآن الكريم وتوافد المعزون. وخليل شارد. ومديحة تتابعه في أسي.

وفجأة دخلت عواطف. مازالت ترتدي ملابس الخروج. فستان يصل إلى قدميها، تخفي به نحافة ساقيها، صافحت خليل في أسي، وجلست أمامه. هذه المرة ليس معها كشوف الجزاءات. وضعت ساقا فوق ساق وتحدثت معه عن موت أمها الذي أدماها، وعن حتمية الموت.

نظر عبد المنعم إليها من خارج الحجرة وابتسم، ثم عاد إلى حجرته الصغيرة.

رغم حزن خليل على موت أمه، إلا أنه أدرك التغييرات التى حدثت لعواطف، خصلة الشعر التى تتسدل فوق جبهتها وترفعها من وقت لآخر بأصابعها.(واضح أن شعرها قد كوته لدي "الكوافير") فوجئت مديحة بها وهي تتحدث عن أبيها الذى حزن كثيراً لموت أمها.

- أملي يا أستاذ خليل أن تراه. رجل مثقف. يعرف كل شئ عن السياسة. والاقتصاد. والأدب والفن. كان يؤلف الشعر في شبابه. كما لا تنس أنه خرج من الوظيفة بدرجة وكيل وزارة.

لاحظت مديحة -أنه رغم أساه- بدأ يتجاوب لحديثها. حكي لها عن رجل يعرفه في البلدة -قريبه من بعيد- يرتدي البذلة. شكله كشكل الباشوات التى ترينهم في السينما. البلدة كلها تخافه. يتحدث في كل الأمور: السياسة، الزراعة، كل الفلاحين يستشيرونه في أمور الزراعة.

عندما دخلت قدرية بالشاي، أشارت مديحة لها:

- أنظري، واسمعي جيدا.

جلست قدرية. ثم قالت:

-الذنب ذنب أبيك. هو الذى أغضبه. كان من الممكن أن يحصل منه علـــى كل ما يريد لكن ليس بهذه الطريقة الفظة.

عندما تسمعت مديحة، بعد أن انتهت قدرية من حديثها. وجدت عواطـــف تحكي عن شقيقها الوحيد -عادل- الذى يصغرها في السن. خريج الفنيـــة العسكرية. سافر إلى روسيا فور تخرجه. ولم يعد إلا وفي يديه الدكتـــوراه في الهندسة. لقد وصل إلى رتبه عقيد الآن.

أمسكت ورقة من فوق مكتبه، وأخذت تشرح له طريقة الوصول إلى البيت. ورسمت له الطريق إلى البيت، لكي يجالس والدها، ذلك العملاق الذى يفهم في كل شئ، والذى يجب أن تستفيد الدولة من خبراته

سوف يذهب خليل إلى والدها لكي يجالسه فقط، يلعب الطاولة معـــه، شطرنج لو أحب، أو يتحدثان في أمور الدنيا لا شئ أخر غير ذلك.

لابد أن يعرف بعض الناس الكبار في البلد. أنه لا يعـــرف ســـوي عطيـــة البقال، وعبد المنعم المعاون. ومديولي صاحب البيت. والأولاد الأغـــراب الذين ينتظرون منحة أهلهم أول كل شهر، ليأكلوا منها عسلاً وجبناً وحلاوة عم عطية البقال.

* * *

قال خليل لعبد المنعم:

- أنني ارغب في مقابلة والدها. لكن أخاف أن أتورط. فأنا لا أفكر فـــي الزواج الآن. كل ما أريده أن أعرف ناساً آخرين. أتحدث معهم.
- الرجل لن يورطك. بل لن يحدثك عن ابنته أبدا. فأنا أعرفـــه جيـــدا. رجل نادر وجوده.

- لكن الخبر سيصل إلى المستشفى. سيقولون إنني ذهبت إلى بيت عواطف للخطبة.
- دعك من حساسيتك الزائدة. إنها أسرة كبيرة، ولا يهمهم أن كنت ستتزوجها أم لا. ومعرفة مثل هؤلاء الناس كنوز.

• • •

أحس والدها بالحيرة. فما معنى ما تقوله.؟

"سيأتى الأستاذ خليل زميلي في العمل لزيارتنا" ما المناسبة هل يريد أن يتزوجها، ربما تقصد هذا وتخجل من ذكره؛ أو لعله آت لكي يستشير الرجل في أمر يخصه.

أحس الرجل بأنه سيحرجها لو ناقش الموضوع معها. لكن تصرفاتها تعني أنه قادم للخطوبة، فهي منذ أن عادت إلى البيت؛ لم تتناول شيئا؛ كل همها أن تتزين وتختار الملابس المناسبة، تصيح في الخادمة. وتتغضب وتحدث نفسها إذا وجدت شيئا لا يروق لها.

قام الرجل وأرتدي بذلة كاملة يرتديها في المناسبات الهامة جدا، وأمسك عصاه. وجلس في انتظار الأستاذ خليل.

جاء دون هدية؛ كسائر العرسان في هذه المناسبات. كما أن ملابسه عادية. لا توحي بأنه جاء ليخطب. استقبله الرجل بترحاب شديد. أحس أنه خجول. ولا يشي عما به. لهذا كان الرجل يتحدث في كل شيء حتى يفتح له الطريق للموضوع الذي جاء من أجله.

وجاءت عواطف مرتدية ثوبا لم يره والدها عليها من قبل. يظهر أنها اشترته خصيصا لهذه المناسبة. كان يكشف عن مساحة كبيرة من ظهرها. لم تستح من أبيها، وأسرعت إلى خليل -هذا- وصافحته في اهتمام شديد.

وجلست معهما. وبدأت في إدارة الحديث "احك يا أبي عن مقابلتك لوزير الزراعة قبل الثورة؛ وكيف أفحمته بثقافتك الزراعية وآرائك"

ويحكي أبوها عن تلك المناسبة. يذكر أسماء كثيرة لا يعرف خليل عنها شيئا. فهو كان لا يهتم إلا بكتب الدراسة؛ لكي ينجح. وحتى بعد أن نجح. السياسة لا تستهويه. كل قراءاته في الجرائد ومجلات الفن. مر الوقت دون أن يحس خليل. ثم قام معتذرا. لأنه جعلهما يسهران أكثر من المعتاد.

خرج من باب البيت سعيدا. فالرجل -والدها- متزن. ووقور. ولديه آلاف الحكايات والتجارب في كل الميادين.

والد عواطف أحس بالحيرة من خليل هذا- فهو لم يخطب البنت. ولا حتى اشتكي من شيء! لكي يجد له الرجل حلا. لكن في قرارة نفسه، أحس بالاستئناس له. فهو وابنته لا يخرجان إلا قليلا. ولا يزورهما أحد، وزيارته قد سلتهما. فليته يفعلها كثيرا.

لم تسأل عواطف والدها عن رأيه فيه. أرادت أن يقول هو رأيه دون أن تطلب منه ذلك.

ذهبت لتخلع ملابسها. أراد أن يلومها لارتداء ذلك الثوب العاري، أمام رجل غريب مثل هذا، لكنه خاف من أن يغضبها.

استأذن منها، وذهب لينام. خاصة أن موعد نومه قد حل منذ ساعة تقريبا.

* * *

أشاع عبد المنعم الخبر في المستشفى. كل من يقابله يخبره بأن خليل أفندي كان في بيت عواطف بالأمس وسهر مع والدها سهرة طويلة.

جاءت قدرية تلهث، وتشد جسدها الممتلئ؛ قالت لمديحة:

- بلغك الخبر؟

- ماذا حدث؟

- خليل كان في بيت عواطف بالأمس.

صدمت مديحة:

- تقصدين ، أنه خطبها؟!

- لا، ذهب إلى أبيها ليلاعبه "عشرة طاولة"!

- غريب أمر خليل هذا. أيتزوج عواطف وهي أكبر منه.

- لقد خدعنا، ظنناه ساذجاً. لكن أتضح أنه خبيث، كل ما يهمه هو المال.

بكت مديحة لكن قدرية شدتها من يدها في عنف:

- قومي. لا تظهري له حزنك.

جاءت عواطف بعد قليل، أمسكت الباب بيدها. ونظرت إلى خليل في دلال.

- صباح الخير يا أستاذ خليل.

وقف فرحا:

- تفضلي.

دخلت، سارت أمام قدرية ومديحة. لم تهتم بهما. لم تجلس. انحنت على مكتبه. داعبت الأوراق. كتبت بعض الكلمات ثم قالت بصوت مرتفع:

- لقد تركت أثرا حسنا في نفس أبي.

- لا. أبوك هو الذى يستحق الإعجاب.

استطاع عبد المنعم أن يصور لكل العاملين في المستشفى؛ أن عواطف أصبحت خطيبة خليل أفندي. لهذا، دق تليفون عواطف كثيرا. مستفسراً عن ذلك الخبر. وكانت ترد عواطف بدبلوماسية:

- ربنا يعمل الخير.

ثم جاءت الممرضات والطبيبات يهنئنها، وهي تبتسم قائلة:

- لم يحدث شيئا للآن.

لكن الأمر أختلف مع خليل فعندما وفد الرجال لتهنئتــــه بالخطوبــة. أحس أن في الأمر لعبة وعبد المنعم وراءها

الغريب، أنه لم يغضب؛ كما كان يتوقع عبد المنعم؛ ظنه سيأتي ليفضحــــه في المستشفي كلها؛ وكان يعد نفسه لتقبل حدث مثل هذا.

فكر خليل كثيرا في الأمر. عواطف ليست جميلة. كما أنها أكبر منــه فــي العمر. لكن الزواج منها ليس بمشكلة كما كان يظن. فهي تشبه الكثـــيرات من نساء بلدهم "دمنهور" ممصوصات من البلهارسيا والأمراض الأخــرى. كما أنها بيضاء وأمه كانت تلح بأن زوجة ابنها -خليل- لابـــد أن تكــون بيضاء. وان يظهر الماء- عندما تشرب- من رقبتها مــــن شــدة بيــاض وصفاء عنقها.

وهو يسير مع عبد المنعم، بعد الظهر، قال:

سأذهب اليوم لمقابلة والد عواطف.

- كالأمس؟

- لا، سأطلب منه يد عواطف.

أخفي عبد المنعم فرحته في قلبه، حتى لا يكتشف خليل أمر الاتفــاق؛ والأتعاب التى سيأخذها من عواطف في حالة الزواج.

* * *

الطلب على عمل الممرضات في البلاد العربية- شديد. خاصة، في بلاد البترول الغنية. لهذا. يكثر الحديث عن السفر وعن الأسعار هناك. وعن الذين نجحوا في السفر والذين أخفقوا

وحضور مندوبي أصحاب المستشفيات في البلاد العربية إلى المستشفي. يعطي الفرصة لغير الممرضات للعمل أيضا. كتبة، عمال.. الخ. لهذا، وجد سمير عبد الغفار؛ أن الوسيلة الوحيدة التى ستنهي مشاكله كلها هي أن يسافر إلى بلد غنية؛ ويأتي بمبلغ يستطيع به أن يأتي بشقة مناسبة؛ ويبعد عن أم رسمية وأمه، والحي كله.

عرض مندوب المستشفي العربي، مبلغا ليس كبيرا. سمير فرح. فمنه يستطيع أن يوفر مقدم الشقة ويرتاح مع رسمية إلى الأبد.

عندما أعطاه الرجل العقد ذهب به إلى رسمية في "سكن الممرضات" لوت رقبتها، وأرادت أن تقوم -كعادتها- كلما جاءها في السكن، لكنه أعطاها العقد، فصاحت فرحة لزميلاتها:

- سمير سيسافر الشهر القادم إلى السعودية.

ثم قبلته أمامهن فرحة. وخرجت معه من باب المستشفي إلى بيت أمها. وعادت المياه إلى مجاريها..

- ٧ -

حضر معظم العاملين في المستشفي حفل زفاف عواطف، الذى أقيم بمسرح تابع للقوات المسلحة. أستأجره عادل شقيق عواطف.

فوزي بك -والد عواطف- كان يقف أمام المسرح بقامته الطويلة. وجسده النحيل. وبذلته الأنيقة. يبتسم للداخل والخارج. لقد حقق خليل له أعز وأغلي أمنية في حياته، أن تتزوج عواطف قبل أن يموت. ياه. لقد كاد يفقد الأمل في زواجها نهائيا.

ماتت أمها دون أن تري تلك الليلة. يوم زفاف ابنها -الوحيد- عادل. بكت الأم. قالت: أن تلك دموع الفرح. بينما كانت دموع الحزن والأسي، من أجل عواطف التى تكبر عادل بسنوات كثيرة.

دخلت أخت خليل الكبرى، التى ذهب خصيصا إليها ليحضرها. قائلا لها "إنك مثل أمي الآن" شهقت عندما رأت عواطف. أنها شديدة النحافة. وليس بها ما يدل على الأنوثة. سوي المساحيق التى تخص المرأة دون الرجل. والشعر الكثير الذي يغطي رأسها تحت الطرحة المتدلية، وذلك الشعر يصنعونه في المدن. لم تدل المرأة برأيها وقتذاك. إنما ضمت الحزن إلى صدرها، حتى تنفرد بأخيها. قالت له:

- اتعميت. حتى تتزوج هذه "الممصوصة"؟!

شدها خليل بعيدا، وقال:

- إني أحبها.

- أهناك مجنون يحب امرأة مثل هذه؟!

عادت المرأة في الصباح إلى دمنهور، احتجاجا على ذلك الزواج الذى لا يشرفها ولا يشرف أخيها...

* * *

في المسرح، التف عدد كبير من الشباب، يصفقون حول الراقصة؛ ويتابعون خليل في ابتسام. هؤلاء هم رفاقه في سطح بيت شارع منشا. جاءوا لوداعه، فمن الليلة. لن يشاركهم النوم في حجرات السطح الصغيرة سينتقل إلى الشقة الواسعة بشارع السلطان حسين. سيذهب فوزي بك إلى شقة ولده عادل في "زيزينيا"، بعد نقل ابنه إلى القاهرة.

عادل فرح كثيرا لزواج أخته. فقد كان يتمنى لو دفع الكثير من أجل زواجها. كان يحلم بأن يجد من يعطيه آلاف الجنيهات ليتزوجها. أخته عواطف الكبيرة، التي يكن لها كل أحترام وتقدير.

كان يشقيه عذابها، لهذا، فرح لقرار والده بأن يعيش في شقته الخاصة به. والتى لا يأتيها إلا في الصيف.

أحس خليل بالراحة الشديدة. فبعد أن كانت قدماه تصلان إلى الحائط، إذا مدهما على السرير.أصبح الآن يستطيع السير في الشقة والانتقال من حجرة إلى أخرى. هذا غير الصالة الكبيرة ودورة المياه الحديثة. التي لا مثيل لها في دورات مياه المستشفي، ولا بيت شارع منشا، ولا في بيتهم في دمنهور.

جاءه عبد المنعم ليزوره في أجازه الزواج. وجد عواطف تحتفي به، وتقدم له الحلوى.

عندما أنفرد به خليل، سأله:

- قل لي الحق. هل دفعت عواطف لك؛ لكي تؤثر على، لأتزوجها.

بل أنا الذي أثرت عليها لتتزوجك. انا صاحب الفكرة.

دخلت عواطف. ترتدي روبا طويلا. وتبالغ في دهن وجهها بالمساحيق. حتى تخفي اصفراره. عندما أستأذن عبد المنعم في الانصراف. لفت له لفافة كبيرة من اللحم والحلويات. لأولاده وزوجته..

لم يمر خليل بتجارب مع النساء، في قريته.كان يخجل من النسوة؛ اللاتي يجئن لزيارة أمه. ويحمر وجهه لو حدثته امرأة قريبة له.

وفي الإسكندرية، لم يهتم بفتيات الكلية، وخاصة أنهن لم يقتربن منه. فهو ليس به ما يشجعهن على ذلك.. ليس وسيما. ولا يهتم بملابسه. كما أن لهجته الريفية واضحة تماما في حديثه. ولم يجلس مع فتاة جلسة حب سوى المرة الوحيدة التى قابل فيها مديحة خارج المستشفي.

لهذا، سعد كثيرا عندما انفرد بعواطف. زوجته. وأحس أن المتعة التى يجدها في معاملته لها . لن يجدها مع أي امرأة أخري. رغم جسدها الشاحب الضامر.

الغريب، أن تعامله معها. جعله يبدي اهتمامه بالجنس الآخر. كان كفتاة خجلي. فإذا ما تزوجت بدت أكثر جرأة، وتحدثت في أمور الجنس بلا حياء.

كان ينظر إلى الممرضات الكثيرات. ويكتشف ما بهن من حسن. ووصل إلى أن رسمية هي أكثرهن أنوثة وفتنة، بل هي أكثر أنوثة من إناث المستشفي بما فيهن الطبيبات.

قال هذا لعبد المنعم وهو يسير بجواره في أحد الأيام التى كانت عواطف تسهر فيها بالمستشفي.

فقال عبد المنعم:

- لقد أصبحت خبيراً في هذه الأمور.

وكانت رسمية قد عادت إلى ما كانت عليه، قبل أن يفتضح أمرها مع الدكتور عبد الحكم. خاصة أن زوجها سمير قد سافر إلى السعودية ولن يضايقها بغيرته عليها.

لم تكن رسمية تتردد على مكتب خليل كثيرا. فما الذى يدعوها للذهاب، وعملها لا يتصل بذلك المكتب بأية صلة. كما أن قدرية ومديحة ليستا من صديقاتها، وخليل هذا، ليس هو الشاب الذى ترتاح للحديث معه. ريفي. خجول. إذا ما تحدث معها خجل، وأدار وجهه بعيدا عنها.

لكن تغيره بعد زواجه من عواطف أثار اهتمامها. بدأ يرتدي ملابس أكثر أناقة من ملابسه السابقة التى كانت لا ينسجم بعضها مع البعض. ولا تناسبه إطلاقا. يقولون أن عواطف تصر الآن. على اختيار ملابسه بنفسها-وتشرف على ارتدائه لها. كما أنه بدأ يهتم بشعره المجعد ويدهنه بالمساحيق حتى جعله ناعما براقا. وشاربه بدا مصفوفا بعناية. فتغير وجهه إلى الأجمل.

ضحكت رسمية عندما رأته يسير أمامها ببذلته. لا شك أن حائكها من القلائل في الإسكندرية. فالبذلة محبكة عليه والقميص ياقته عريضة غير قمصانه القديمة التى يحيكها له خياط من قريته.

وقف خليل أمامها، قال في جرأة. لم تعهدها فيه:

- شكلي يضحك.؟

قالت وهي تبتعد خجلي:

- كلا.

سار خلفها في عناد وكاد يمسك ذراعها. فقد ساءه أن تنظر إليه هكذا، بجرأة تصل إلى حد الصفاقة.

- قولي. ماذا حدث؟

قالت وهي تحاول الدفاع عن نفسها:

- لقد تغيرت كثيرا بعد الزواج.

لم يستطع خليل أن يكمل الحديث، خجله القديم مازال فيه، سار إلـــى مكتبه غاضبا، وصعدت هي الدرجات إلى عملها.

جلس شارداً، لقد تغير حقا.

عواطف أصرت أن يذهب مع أخيها إلى حائكه الخاص. لكي يحيـــك لـــه ثلاث بذلات، وأخذه كذلك إلى حائك قمصانه.

قالت له:

- المال كثير، ويجب أن تظهر بصورة مشرفة في المستشفي.

لكن ذلك لا يدعو إلى السخرية. فتضحك منه البنت رسمية هكذا.

أراد أن يتحدث في هذا الموضوع مع مديحة وقدرية. لكنه منذ أن تـــزوج وهما يعاملانه في جدية شديدة، وفي حدود العمل.

* * *

حبلت عواطف.عندما تنجب سيكون قد مر على زواجها تسعة أشهر كاملة. فرحت كثيرا، فلابد أن تغتنم الفرصة وتنجب، وألا وصلت لســن اليــأس، وبات هذا مستحيلا، لكن خليل ساءه هذا، ليس لأنه لا يريد أطفالا إنمــا لأن حالة عواطف ساءت، جسدها الضامر النحيل، لم يتحمل الحمل، فتقــوس. فكانت تسير وكأنها عرجاء.

قال له عبد المنعم وهو يراها هكذا:

- لقد كسرتها.

(قالها بطريقة توحي بأشياء خبيثة. جعلت خليل يغضب منه) وبدا وجهها متورما. وأنفها منتفخا. حتى صارت لا يطاق رؤيتها.

مدير المستشفي الذى كان يأنس لحديثها، وجلوسها عنده. لم يعد يحتمل رؤيتها ولو للحظات.

ودار الحديث حول زوجها كيف يستطيع احتمال رؤيتها في البيت. وهم لا يتحملون، هذا إذا ما مرت أمامهم.

خلال شهور قليلة من الزواج. أصبحت عواطف غير صالحة للتعامل الجنسي. حدث هذا بعد أن خرج خليل من قمقمه. وأصبح هذا الشيء يمثل عنده أهمية قصوى.

لهذا، كان يزفر طوال الليل. ويتقلب في أسي بفراشه، كأنه ينام فوق الجمر، ولا يسمع من عواطف سوي الأنين. كانت -هي- فرحة رغم ما حل بها. قالت له:

-بعد شهور قليلة سألد لك طفلا جميلا، يملأ علينا البيت. ثم أعود إليك كما كنت.

لم يصدق خليل أنها ستعود كما كانت، وأن ذلك الجسد سوف يتماسك يوما، ويتصلب كما كان، وأن الوجه سيذهب عنه التشويه بل أحس أنه غير قادر على لمسها، حتى وإن عادت كما كانت.

بعد أن كان سعيدا بما لقيه معها في أيامه الأولي للزواج. صار حزينا الآن. لإحساسه بأن الناس تشفق عليه. بل يسبه البعض لأنه قادر على احتمال امرأة في هذه الحال.

وبعد أن كانت مديحة حزينة ومهمومة لأنه تزوج غيرها. صارت سعيدة. وكأنها تشمت فيه لما حل به من ذلك الزواج. وبعد أن كانت تحادثه جادة وفي حدود العمل فقط. صارت تختلق الأسباب لتحدثه. وتسخر منه. ومن الزواج بصفة عامة.

رددت الممرضات في سكنهن. حكاية عواطف وخليل. وأبدت كل واحدة رأيها في هذا. قالت واحدة:

- أن جسدها الضامر لم يحتمل جسد خليل "العفي" فانكسر.

قالت هذا بإيحاءات خبيثة. فضحكت لها البنات ساخرات. ووصفته إحداهن بأنه كالحمار، في قوته. وعواطف كالعصفور الهش الضعيف.

ضحكت البنات في خجل. لما تقصده زميلتهن من ذكر "الحمار" هكذا. ورسمية تجلس فوق فراشها دون أن تشاركهن الرأي.

كل ما بها يصرخ بالأنوثة. شفتاها الممتلئتان. ووجهها الدائم الاحمرار. لقد سافر سمير منذ شهور كثيرة.وأسرها الزواج، لم يسمح لها بالانطلاق كما كانت. أجل. كانت علاقاتها في الأول، شقاوة بنت ترغب في الزواج. فكثير من الفتيات يفعلن هذا، لكن بعد الزواج الأمر ليس سهلاً، أقل خطأ في ذلك المجال جريمة. لهذا، لا تسمح لها أمها بالخروج الكثير. أهل سمير يسكنون قريبا منها، يتابعون تحركاتها. ويعدون عليها الخطوات.

لم يعد لها سوي المستشفي. الأطباء الشبان بعد حادثة عبد الحكم يبتعدون عنها، يخافونها. من حظها السيئ يكتشف أمرها في أول لقاء مع عبد الحكم. والكل يعلم -حتى المدير- أنه كان يفعل هذا كثيرا مع العديد من الممرضات الدميمات؛ اللاتي لا يقربهن أحد سواه.

عندما قالت لزميلاتها أن لقاءها مع عبد الحكم كان الأول والأخير. لم يصدقنها. قلن:

- لا شك أنه كان يفعل هذا معك كثيرا.

المستشفي ليس به رجال غير هؤلاء يصلحون لما تريد. الأطباء الكبار يعافون مثل هذه الأشياء، لا يعرضون تاريخهم ووقارهم من أجل امرأة مثل رسمية. كما أن معظمهم لا يصلح لما تريد.

لم يتبق سوي رجال في حال حامد- عامل البوفيه. وأن كانوا مازالوا يحتفظون برجولتهم. ومتزوجون ولهم أطفال.

عبد المنعم لا يفكر في هذا أبدا. كل ما يهمه السمك الذى يبيعه للأطباء، والخدمات التى يقدمها لهم من أجل المال، حالته الاجتماعية لا تجعله يفكر في شيء سوى هذا. والعمال يخافون الاقتراب منها، يحسون أنها لن ترضي بهم. وخليل، قوته أصبحت حديث المستشفي. تشبهه زميلتها بالحمار.

أغمضت رسمية عينيها في تلذذ. يا للأسي. لقد كانت تسخر من حديثه الريفي. وملبسه. فتفكر فيه الأن كعشيق يملأ الفراغ الذي تعيش فيه، خاصة أن حالة زوجته لا تسمح له بلمس يدها. وبالمرة تنتقم من عواطف التى فضحتها يوم أن رآها جاد في الفراش مع عبد الحكم. هذا غير تعاليها عليها الدائم.

* * *

أحس خليل بأنه يقترب من الجنون. عواطف تقوم في الصباح قبل أن يصحو. تدخل الحمام وتتقيأ. يصحو هو كل يوم على صوتها. تتأوه

بعد ذلك. وتحس أن قلبها يرجف. وبأنها قد تموت بعد لحظات. ويجري هو في الشقة يبحث لها عن الأدوية الكثيرة.

لكن بعد أقل من ساعة تضحك. وتضع المساحيق فوق وجهها لتزيده تشويها. يحس أن الناس في الشارع يطيلون النظر إليها وهي تعرج بجواره. وتستند على ذراعه. لا شك أن ما يحدث له بسبب عدم رضا أهله على تلك الزيجة.

مما زاده أسي. أنه ضبط نفسه، متلبسا بإمساك يد ممرضة كانت تصافحه. وأن البنت ارتبكت. وابتسمت في خجل، فترك يدها مرددا كلمات غير مفهومة. قاصداً بها الاعتذار إليها. ثم اكتشف أنه-أيضا- يتابع ساقي قدرية إذا ما سرحت وارتفع الثوب قليلا عن ساقيها. أو إذا نامت فوق مكتبها. وأراحت الساقين في حرية.

لو لم يكن قد تزوج، لعاش ما عاش دون أن يحدث له ما يحدث الآن. تذكر الطالب المتدين الذى قطع ذكره خوفا من الفتنه والحرام. وأكثر-هو- من الجلوس لدي حامد عامل البوفيه -تمني لو سأله عن إحساسه والفتيات الجميلات يضحكن أمامه في خلاعة. بل كن يذكرن أمامه الكلمات الخليعة والبذيئة ليثرنه.

لكن حامد لا يتحدث في ذلك الموضوع أبدا.

أقترب عبد المنعم منه. طلب زجاجة مرطبات على حساب خليل. بينما أدار خليل وجهه عنه في غضب:

- مازلت غاضبا مني؟

لم يجبه:

- كنت مغسل وضامن جنة.

تابع خليل رسمية وهي تقترب من حامد العابس. ضاحكـــة. تمـــايلت أمامه وهي تتظاهر بعدم رؤيتها لخليل وعبد المنعم.

قال عبد المنعم:

- ثم أنا لم أضرك في شيء. كنت تسكن في حجرة صغيرة. أسكنتك فـي شقة واسعة تبرطع فيها كما تشاء.

صاح خليل بعد أن أحس بأن الذين يجلسون قريبا منهما يسمعونه:

- كفي يا عبد المنعم. كفي.

- أنت مكبر الحكاية. زوجتك ستعود إلى حالتها الطبيعية بعد الولادة

صمتا للحظات، ثم قال عبد المنعم فجأة:

- مادمت مزنوقا هكذا، ابحث لك عن امرأة تسد خانة إلـــى أن تشـفى زوجتك.

قام خليل غاضبا:

- ما الذي تقوله؟!

- أريد أن أراضيك بأي طريقة..

فكر خليل فيما قاله عبد المنعم. بأنه في حاجة إلـــى امـرأة، بعـد أن وصلت عواطف إلى هذه الحال، لكن، أيعقل أن يفعل هو هذا؟!

أحيانا، وعندما تشتد عليه الحالة. كان يُقرر في المساء أن يفعل في الصباح شيئا، وأنه لن يخجل ولن يراعي أي شيء. ثم يفكر في النساء. وفي كـــل مرة يصل تفكيره إلى البنت رسمية. التى تتفجر أنوثة.

لكن، في الصباح يعجز عن الوقوف أمامها. بل إذا جاءت مكتبه، لتحدثـــه، لا يكمل الحديث معها. أجل، هو لا يستطيع هذا أبدا.

في البيت تنام عواطف على ظهرها. وتكثر من الأنين. والتأوه. فلا يجد رغبة في تناول غداءه. يخرج متعللا بأي شيء. يسير في الشوارع.
فوزي بك، والدها ترك لهما الشقة. وارتاح لدي ابنه. وتركه -هو- للعذاب
زار مرة شارع منشآ. قابل عطية البقال. وجد امرأته تجلس في الداخل. تبيع للزبائن. قال الرجل فرحا:

- لقد من الله علي. زوجتي حامل يا أستاذ خليل.

المرأة منتصبة القامة. تتحرك في خفة. من يراها لا يظن أبدا أنها حامل.

صعد خليل إلى السطوح. التف الأولاد حوله. قبلوه فرحين. دخل حجرته. وجدها قد انشغلت بطالبين جديدين، أحس بالاختناق وهو يجلس داخلها. لم يستطع انتظار الشاي. أسرع إلى الشارع. ركب الترام. معه "الاشتراك" يستطيع أن يركب به في أي وقت أي ترام من ترام البلد. وصلت الترام إلى المنشية .(المحطة القريبة من بيته) لكنه لم ينزل. سارت الترام حتى أخر الخط. رأس التين، لم ينزل أيضا. ظل جالسا حتى امتلأت ثانية بالركاب. وسارت عائدة إلى أول الخط في شارع "محرم بك" عندما اقترب الكمساري منه قال له:

- اشتراك.

لم يلحظ الكمساري أنه كان موجودا وقت الذهاب إلي رأس التين. تابع وجوه الناس. وأذرعة النساء العارية والسيقان التى يمكن رؤيتها من مكانه. نام دون أن يحس. أستيقظ في محطة مصر.

وصلت الترام إلى أخر الخط في شارع محرم بك، لكنه ظل جالسا كما هو، إلى أين سيذهب؟! عواطف تلاحقه بسعالها وأنينها وشكواها. وعبد المنعم-

الذى كان سبب تلك الزيجة، لا يريد أن يراه. فأين سيذهب. وهو وحيد فـي الإسكندرية. لم يحس بالوحدة إلا في هذه الأيام.

سارت الترام في شارع محرم بك، اخترقته. ثم محطة مصر. وشـارع الخديوي. حتى سيدي العمرى. ثم شارع أبي الدرداء. ثم المنشية. حتى رأس التين. وهو جالس، الكمساري يدهش من تصرفه. أراد أن يسأله عن سـبب بقائه في مكانه والترام ذاهبة وعائدة. لكنه سأل نفسه أليس من حقه هـــذا، مادام معه الاشتراك؟!

عاد مساء إلى البيت. عواطف نائمة. سألته وهي نصف نعسانة:

- من، خليل.؟
- أجل.

سار في احتراس وهدوء لكي لا تسمعه، فتستيقظ وهو لا يريد هذا.

• • •

أحست رسمية أن تجاهل خليل لها يزيدهـا إصـراراً وتمسـكا بـه. يطاردها بجسده القوي. إنه ليس في وسامة رمضان طالب الطب، الذي قـد يكون الآن طبيبا مشهورا. ولا في وسامة خميس بن بـــائع اللبـن. لكـن الوسامة ليست الأساس في مثل هذه الأشياء. أنها تذكر ما قاله لها رمضـان يوما. وهو يضمها لصدره.. أن امرأة مشهورة بعلاقاتها مع الرجـال. قـد سئلت يوما عن أهم ما يشد المرأة للرجل فقالت: أولا رجولتـه، ثانيـا: أن يقون مقبولا، غير منفر، وإن كان وسيما فخير وبركة.

الولد رمضان كان يقرأ كثيرا كانت شقته مليئة بالكتب الأدبية.

وخليل تحكي المستشفي كلها عن مقدرته، ورجولته. كما أنـــه ليس منفرا. البنات الممرضات يقلن أن لهجته الريفية محببة إليهن. وتصرفاتـــه تجعله خفيف الروح ومسليا.

دخلت المكتب فجأة. كان رداء الممرضات، الذي ترتديه مفتوحا عند الصدر. فظهر صدرها عندما انحنت فوق مكتبه. كـــانت تستفسـر عـن مفردات مرتبها. قالت هذا لكي تجد فرصة للتحدث معه.

والرجل يكتب لها كل مبلغ علي حدة. كان مشغولا بحساب المرتـب. فلـم يكتشف الصدر الأبيض. والثديين المدورين. لعنته في نفسها. فهي لا تريـد حساب مرتبها. بل لا تريد المرتب كله.

فسمير يرسل لها مبالغ كثيرة كل عدة شهور. كل ما تريده أن يلتفت إليـها. هي بلا زوج الآن. وهو مثلها بلا زوجة. وحتى إن عادت عواطف إلـــى حالها الأول، أيضا، سيكون بلا زوجة.

دقت مكتب مديحة بردفيها وهي خارجة ترقص وسط المكاتب القليلـة. قلدتها قدرية في رقصتها- وهي جالسة-ساخرة. فابتسمت مديحة وهي في حالة ضيق شديد من خليل هذا. فبعد أن حدث لزوجته ما حدث؛ تأتيه تلـك المرأة التى يعرف المستشفي مدي فسقها ورعونتها.

بعد أن تناول خليل غداءه في البيت، خرج.

سألته عواطف عن المكان الذي سيذهب إليه. قال:

- سأقابل أصدقائي في المقهى.

خرج، تعرف هي أنه ليس له أصدقاء، حتى عبد المنعم لا يقابلـه الآن إلا نادرا. ركب الترام وظل بها حتى آخر الليل، حدث الكمساري السـائق عن أمره الغريب. قال له السائق:

- لله في عبيده شئون...

- ٨ -

رأته عواطف -اليوم- وهو يتحدث مع رسمية بجوار السلم. قالت:

- خليل.

أكمل حديثه بينما هي تنتظره في غيظ. قالت رسمية:

- اذهب إليها قبل أن تثور.

ذهب إليها في ضيق:

- ماذا قالت لك هذه المرأة؟

- وما شأنك أنت؟

- شأني؟ لا أقصد شيئا. لكن أردت أن أنبهك.

تركها وسار.

هو الآن لا يطيقها. لولا الملامة لكان طلقها وارتاح. لكن والدها فوزي بك. رجل طيب. وعادل شقيقها يحسن معاملته. كما أنها حامل. فكيف يأتي الطفل ويجدهما قد انفصلا.

وقفت عواطف لحظات تتابعه وهي سائرة. ثم صعدت إلى حجرتها في عناء.

منذ أن جاء خليل من بلدته إلى الإسكندرية. لم يعانِ ما يعانيه الآن من ألم. منذ أن كان صغيراً وهو لا يطيق المرض. لم يستطع احتمال أنين أمه. التى يحبها. كان يهرب إذا ما مرضت. يسير نحو الترعة الكبيرة، يعود مساء متواريا. يتألم من أجل أمه. لكنه لا يقترب منها. حتى عرفت أمه طبعه.

لكن آلام عواطف لا تنتهي، صورتها المشوهة تطارده. كان مرتاحا في حجرته الصغيرة وسط الطلبة. الآن كل الأشياء تفتحت أمامه. ضاق من حجرته الصغيرة التى عاش بها سنوات طوال، وذلك بعد أن جرب الحياة في شقة واسعة. كذلك النسوة؛ لم يكن يهتم بهن ذلك الاهتمام الذي يبديه الآن، بعد أن تزوج عواطف، كما يقولون في بلدته ما عزوبية إلا بعد زواج".

يهرب من تدرية التى تتحدث عن فترة الحمل. وكيف كانت تبدو جميلة. حتى أن النسوة كن يقلن لها "ستلدين فتاة" فالفتاة تجعل أمها جميلة وقت الحمل. لكن هي تبدو جميلة في حملها للولد والبنت سواء.

ومادامت عواطف قد حدث لها كل هذه التشويه. فلابد أن تلد ولدا.

ويهرب من نظرات مديحة. التى لا يعرف كنهها الآن. هل هي نظرات شنتة. أم شماتة. لا يحلو له الجلوس الآن، إلا بجوار حامد -عامل البوفيه- الرجل العابس دائما، منذ أن كشف ابن حيه سره لا يتحدث إلا قليلا. وخليل يقترب منه. يحادثه. حامد هو الوحيد في المستشفي الذي لم يعلق على موضوع زواجه من عواطف.

- حامد. لماذا أنت صامت دائما؟

- تحت أمرك. قهوة، شاي؟

قالها بآلية ليغلق أي باب لحديث خاص بينه وبين خليل:

- هل أنت سعيد في هذه المستشفي؟

- وما الذي سيحزنني؟

لكن خليل أحس أن الرجل في حالة لا تسمح له بالحديث مع أحد.

تابعه وهو يلم الزجاجات الفارغة. من فوق الموائد.

جاءه تومرجي، قال:

- الأستاذة عواطف تريدك في مكتبها.

أومأ برأسه له ثم انصرف إلى شروده.

* * *

ابتسمت عواطف له. قالت في ود شديد:

- اجلس.

أشاح بيده:

- لا أريد الجلوس.

- ما الذي يغضبك مني؟

- أرجوك،، سأذهب إلى مكتبي لإنهاء بعض الأعمال.

ابتسمت ابتسامة واسعة:

- كنت سأسهر اليوم. لكن من أجلك أجلت هذا. وسوف أذهب معك إلى البيت.

أحس بالضيق أكثر: تريد أن تشعره بأنها تهتم به.

يحدث أحيانا أن تتحامل عواطف على نفسها. وتجهز نفسها له رغم ما بها. ذلك يزيده هما. فهو لو عارضها ستحزن أكثر، ولو وافقها سيعاني الويـــل منها، فمهما تحملت، لن تستطيع. وكلما ازدادت أنينا وتأوهاً. إزداد هـــو أسي ورغبة في أن يخرج من البيت كله.

ويؤدي هذا -عادة- إلى أن تنام في الفراش أياما كثيرة.

واضح من ابتسامتها وحديثها اليوم. أنها سوف تتحامل على نفســها من أجله. تريد أن تنسيه رسمية. تظن أن هناك شيئا بينها وبينـــه. وتظـن أنها بجسدها العليل هذا سوف تنسيه رسمية.

لكن لن يوافق مهما فعلت. وليتها تبقى في المستشفى ولا تأتي إلى البيت حتى تلد. سيزورها في سكن الممرضات من وقت إلى آخر.

* * *

ركب الترام بعد الغداء. تعلقت عواطف بيده قبل أن يخرج. لكنه أصر على ذلك. بكت. قال:

- لدي موعد هام. لا أستطيع التخلف.

قالت في ثورة:

- أعرف أنك ستقابل رسمية.

ثم بكت.

دفع الباب خلفه، وأسرع إلى الشارع.

الترام في انتظاره. سوف يخلو مقعد بعد عدد قليل من المحطات. سيجلس بجوار النافذة. يتابع المحلات عديدة الألوان، والشوارع. سيظل في مكانه إلى أن يحل الظلام.

الكمساري شاب صغير. يضحك كثيرا ويداعب الركاب.

في محطة رأس التين قال له:

- حضرتك ستعود معنا؟

- أجل.

ثم أخرج له الاشتراك حتى لا يقول كلمة أخري.

أراد الرجل أن يداعبه. كما يفعل مع سائر الركاب طوال الطريق. لكن وجده عابسا. فكف عن الحديث معه عندما وصلت الترام إلى آخر شارع محرم بك، وهبط كل الركاب. وبدأت الترام لرحلة أخري. لم يستطع الكمساري السكوت. قال:

- ستعود معنا ثانية؟

- أجل. ممنوع؟

- لا. لكن غريبءما تفعله.

نظر خليل إلى الشارع وكأنه لم يسمع شيئا. لن يستطيع أن يقيم علاقة مع رسمية. مهما فعلت.

هناك أشياء كثيرة تمنعه: الخوف من الله. وهو الذى لم ينقطع عن الصلاة منذ الصغر. ووقاره في المستشفي الذي أعتاده الناس فيه.

كيف يتصرف مثل عبد الحكم الذي كانت هانم التومرجية تسخر منه أمامهم.

جاء الكمساري ضاحكا. بعد المنشية. سأله عن "فكة" جنيه. داعب خليل جيبه. ثم أخرج له النقود عندما وصلوا إلى رأس التين. ووقفت الترام لبعض الوقت، حتى يشرب السائق والكمساري الشاي. ظل هو في مكانه كالمخدر. كان محموما بعواطف ورسمية ومديحة. وعطيه البقال الذي تزوج بعد أن كبرْ وشاخ، واستطاع أن يلحقْ العربة الأخيرة من القطار، فحملت زوجته.

يطارده الشاب المتدين الذي قطع ذكره. لم تنشر الجريدة صورته. لكنه تخيل له صورة في ذهنه. بل يحس -الآن- أن تلك الصورة ليست من خياله هو. بل هي الصورة الحقيقية للشاب وجهه ممتلىء، ولحيته كثيفة وعيناه واسعتان، بهما طيبة وسكينة.

لو أطلق حامد -عامل البوفيه- لحيته. سيكون مثله.

هبط من الترام قبل أن تدخل الجراج بعد الواحدة صباحا، صافح الكمساري والسائق وعاد سائرا على القدمين إلى بيته.

* * *

أتصل به فوزي بك -والد عواطف- في المستشفي. قال في ود:

- كيف حالك يا خليل. لقد اشتقت إليك. لماذا لا تزورني؟!

- تحت أمرك.

- أريد أن أراك. سأنتظرك في شقة عادل ابني.

أراد أن يعتذر. لكن الرجل ألح.

جاءه عبد المنعم مبتسما -كعادته- داعب مديحة. وأخذ سندوتشا من قدرية. أخذ يلوكه وهو واقف بجوار مكتب خليل. ثم قال بعد أن انشغلت قدرية ومديحة:

- عواطف اشتكت لي منك.

- لماذا؟

- تقول أنك تخرج بعد الظهر، ولا تعود إلى البيت إلا بعد الثانية صباحا.

- وما الذي يغضبها في هذا؟

- تعتقد أنك على علاقة برسمية.

كأن خليل لم يسمع قوله. فقد تحدث مع مديحة في كشوف المرتبات التى تعمل بها الآن.

قال عبد المنعم وهو مازال يلوك:

- أين تذهب في ذلك الوقت؟

- لا شأن لك بي.

- تقابلها حقا؟!

تحدث مع مديحة وتركه.

• • •

كان فوزي بك ودودا معه.

قدمت الخادمة بعض الحلويات مع الشاي؛ اشتراها الرجل خصيصا من أجل ضيفه. تحدث معه في أمور كثيرة؛ حتى ظن خليل أن الرجل اشتاق إليه حقا، فدعاه لمجلسه، وليس السبب غضب عواطف منه. لكن بعد ساعتين وأكثر من الحديث المتواصل، فاجأه الرجل قائلا:

- ما الذي حدث بينك وبين عواطف؟
- لم يحدث شيء.

فضحك الرجل:

- تقول إنك تهرب من البيت الآن. وإنك...
- إنني في حالة نفسية سيئة ولا أريد أن أسبب لها ضيقا.

أخذ الرجل يرشده إلى الطريقة المثلى لمعاملة النساء "الناقصات عقل ودين" وأن كلمة واحدة تذيب كل أوهامهن وغضبهن، قال له تعلم أن الكذب محرم إلا في أمور ثلاثة، أحدهم أن تكذب على زوجتك. وتصفها بالجمال وأن لم تكن كذلك. وان تصف لها مدي حبك وهيامك وأن كنت تبغضها.

خرج من لدي الرجل بعد الخامسة. لم يستطع الذهاب إلى البيت. كل ما قاله -الرجل- قد تبخر عندما طالعته سحنتها وجسدها المنكسر. وتحركاتها العرجاء.

أخذ يدور في الشوارع إلى أن هده التعب.

عندما أدار المفتاح في "الكالون" أحس بحركة داخل الشقة، كانت عواطف في انتظاره. ترتدي قميص نومها العاري وتصبغ وجهها بالمساحيق، وتبتسم في دلال.

أسرعت إليه..

لم يستطع هذه المرة أن يهرب منها. تعامل معها في أسي وحاولت هــي أن تخفي آلامها.

• • •

لم تأت قدرية اليوم، وحده مع مديحة في الحجرة. تنظر إليه فــــي أســــي. أحست أنه عاد إلى ملابسه غير المنظمة. بل أهمل نفسه؛ أكثر من أيام مـــا قبل الزواج. فقلما يحلق لحيته. وشاربه لم يعد منتظما كما كـــان. اقـــتربت مديحة منه:

- أستاذ خليل، تسمح لي بالجلوس بجانبك؟
- تفضلي.

أشار إلى المقعد أمامه. لكن الفتاة حملت المقعـــد ووضعتـــه بجـــانب المكتب، قريباً منه. ثم قالت:

- ما الذي يشغلك هذه الأيام؟
- لاشيء.
- إنني أحس بك. لك أكثر من شهر وأنت مرتبك. وكأنك تعاني أمرا.
- قلق من أجل عواطف التى أتعبها الحمل.
- لا. الأمر أكثر من هذا. كل الرجال يمرون بذلك الموقف دون تاثر.

مط شفتيه:

قامت وأعدت الشاي له، وضعته أمامه. ابتسمت له. ذكرته بأيام أن ذهـــب لمقابلة أبيها، راغبا في الزواج منها.

- أنت طيبة يا مديحة.
- بل، أنت الذي تستحق كل الخير.

أحس براحة لوجه مديحة المستدير وعينيها السوداوين. ابتسم. كل شـــيء قسمة ونصيب. لو تزوجها ما كان أحس بما يحسه الآن مع عواطف.

دخلت رسمية، ابتسمت عندما رأت مديحة تجلس قريبة منه. قالت:

- أستاذ خليل. أريدك أن تكتب رسالة إلى سمير زوجي.

نظر إلى مديحة التي ابتعدت وأبعدت المقعد عن المكتب. قال:

- أنك تجيدين الكتابة يا رسمية.

- لكن لا أعرف أصيغ الكلام مثلك.

وقفت مديحة وقد أحمر وجهها. ثم جلست فوق مقعدها. حركـــت رســمية جسدها في عصبية وسط المكتب، جلست فوق المقعد، الذي كانت تجلـــس مديحة فوقه.

انحنت بلا حياء-حتى كادت شفتاها تلمسان ذراعه الكثيف الشعر.

دفعت مديحة درج مكتبها في عصّبية، ثم خرجت مـــن الحجــرة. قـــالت رسمية:

- ما الذي يغضب هذه الفتاة؟!

- من قال لك إنها غاضبة؟!

- دعك منها، أريدك أن تكتب رسالة لسمير زوجي. تشرح له شـــوقي إليه. وحاجتي لعودته. أنت تعلم ما أحسه يا أستاذ خليل. من وحـــدة. تصدق، لا أستطيع النوم دون الأقراص المنومة.

نسيت الرسالة. وأخذت تشكو له همومها. حماتها التى تصفـــها بـــالفجور. وتتهمها بإرسال ابنها إلى بلاد الغربة. حتى يصفو لها الجو مع من تحـــب. وأمها التى تريد أن تقيدها في رجل السرير ...

لمست ذراعه الكثيفة الشعر بأصابعها. أراد أن يبعدها. لكنها تشـــبثت بها في عصبية.

أحس أن المرأة تتصرف وكأنها في حجرة نومها. صاح بها:

- رسمية. أننا في مكان عمل.

- ما ذنبي إن كنت لا أعرف ألقاك خارجه.

- ولماذا ألقاك؟

- لكي أشكو لك ما أحسه من وحدة.

عادت مديحة إلى مكتبها. فأبعدت رسمية يدها. وقالت:

- لقد أرسل لي سمير زوجي رسالة . قال لي فيها بأنه يثـــق بـــك. وأن أستشيرك في أي أمر من أموري الخاصة.

قال:

- سأكتب لك الرسالة كما طلبت.

وقفت رسمية فى عصبية وقالت:

- سأعود بعد ساعتين لأخذها.

اهتزت في الحجرة. تابعت مديحة في تحد. ثم خرجت.

جلست مديحة غاضبة وحزينة. لفت مقعدها ناحية الباب. قام خليل إليها:

- ما الذى يغضبك؟

- لا شيء.

بكت:

- أستاذ خليل. إنني كلما اقتربت منك، تأتي أشياء تبعدك عني.

- رسمية لا تعني أي شيء في حياتي. إنني لا أرتاح لحديثها معي.

- كيف؟ والمستشفى كلها تتحدث عن جمالها وأنوثتها.

- لا أرتاح لأحد غيرك.

مسحت دموعها فرحة...

• • •

ركب الترام، جلس في آخر العربة، بجوار أحد الركاب. ليس مـــهما. فبعد قليل سيخلو مقعد بجوار النافذة سيجلس فوقه وحده ليشرد.

في محطة رأس التين. رأي الترام التى يعمل فيها الكمساري الشاب الـــذي يمازح الركاب. أسرع وركب معه. فرح به الكمساري:

- أهلا. أستاذ خليل. لقد بحثت عنك اليوم.

قدم له كوب شاي. ووقف بجانب مقعده. حدثه الشاب عن بعض المواقـــف الضاحكة التى مرت به اليوم.

عندما بدأت الترام في المسير وعاد الكمساري إلى مكانه في آخر العربـــة. كان يحدثه من بعيد. من وقت لآخر

- آخذ بالك يا أستاذ خليل؟

أو أن يرجو الركاب أن يدخلوا داخل الترام قائلا:

- ادخلوا بجانب الأستاذ خليل. أجل. ذلك الذي يرتدي القميص الأزرق.

عرفه معظم سائقي خطي(٤) و(٥) اللذين يصلانْ إلى رأس التين. ومعظـــم الكمسارية. يحدثونه، ويسألونه المشورة، يرسلون زوجاتهم وأولادهم إلـــى المستشفي للعلاج.

عند العودة، يسير وسط الذين يسكنون قريبا من بيته.

لقد ارتاح لحديث مديحة. في عينيها صدق، ووجهها الجميـــل الـــبرئ يريحه. غير الوقاحة التى يجدها في شفتي رسمية، أو الوهن الذي يجده في جسد عواطف.

أحس بسعادة وهو يرتدي ملابسه، مستعدا للخروج، والذهاب إلى العمل سيري مديحة. ويحدثها. لن يسمح لرسمية بإفساد ما بينهما.أجل. لابد أن يوطد علاقته بها. وإلا أضاعه القلق والحزن.

يحدثه الكمساري الشاب عن خطيبته التي تخجل من عمله ككمساري. وتلح عليه لكي يجمع نقودا لشراء سيارة أجرة، ليعمل عليها.

- بشرفك. أي عمل أشرف، الكمساري. أم سائق التاكسي. أنها لا تريد الشرف. تريد المال الكثير. كلهن هكذا.

ويضحك خليل. يشكو له السائق سوء الحال. وغلو الأسعار. والمبالغ التي ينفقها على "شوار" ابنته بينما خطيبها الموظف يريد أن يتزوج على الجاهز. لا يريد أن يساهم في شئ يقول "يكفي أنني جهزت الشقة".

تنتظره مديحة بفستانها الأبيض الذي يتماشى مع وجهها الجميل. قدرية لم تعد تساعدها على إقامة علاقة معه. كيف تسمح بذلك، والرجل قد تزوج، وامرأته حامل الآن.

لهذا تخفي مديحة رغبتها عن قدرية. تظهر أمامها عكس هذا.

ما الذي يمنع لو تزوجها على تلك المرأة التي تشبه خيال المآتة؟!

لكن والد مديحة سيفسد الزواج هذه المرة أيضا. لو تساهل معه ما كان خليل ذهب إلى عواطف.

عادت الابتسامة إلى فمه. بعد أن صفقت له مديحة. وبعد أن أرتاح للكمسارية ولسائقي الترام.

بمديحة والترام يستطيع أن يتغلب على وساوسه وكآبته ورغبته في الهروب من الإسكندرية إلى دمنهور تاركا عواطف وما في بطنها.

- مديحة. أريد أن أقابلك خارج المستشفي.

- أين؟
- نفس المكان الذي التقينا فيه.
- لكن. أنت متزوج الآن.
- ليس مهما.

ابتسمت، لقد صارت أكثر شجاعة معه. زواجه من عواطف جعلها تتمسك به أكثر، تخاف أن يضيع منها ثانية.

تقابلا. في المرة السابقة لم يكن محتاجا إليها كما هو الآن. وكـــانت هي تريد منه أن يقابل أباها. كما رسمت لها قدرية. لكن هذه المرة، هـــي تريده ألا يفلت منها أبداً حتى لو لم يتزوجها.

أمسك يدها الرقيقة:

- لماذا لم تستجب لرسمية رغم ما بها من فتنة.؟
- دعيك من كل شيء سوانا الآن.
- لديك حق.
- لو استجاب أبيك لي. لكنت زوجتي الآن.
- لا، أنت لم تكن متحمسا. وإلا تزوجتني مهما حدث.
- انني متحمس لك الآن. لأنك أملي الوحيد في البقاء. في الإسكندرية.

سارا معا. لم تكن مديحة خائفة من أقاربها "الجَعافرة" الذين قد يقتلون الفتاة إذا أحبت دون رغبة أهلها.

- لا أريد أن أتسرع يا مديحة. فأخطبك الآن وأضيع كل شئ. لابد مـــن دراسة الموقف بعناية وتأنٍ.
- كل ما يهمني الآن أن تحبني.
- قد يرانا أحد العاملين في المستشفي.
- أتخاف علي، أم تخاف من عواطف؟
- كلا. لو قابلني أحد. سأقول إنك خطيبتي.

* * *

في اليوم التالي بدت مديحة سعيدة. غنت في الحجرة. وداعبت قدرية،

وأعطت نقودا للساعي. وطلبت منه أن يقدم مرطبات لقدرية وخليل على حسابها. قالت قدرية لها:

– ما الذي حدث. هل هناك عريس على الطريق.

– ليس مهماً العريس الآن.

ابتسم خليل في سعادة. البنت تتحرك في خفة. تشعره بحيوية الحياة. يود لو قام وشدها من يدها إلى أبيها في المطبخ، يصرخ في وجهه بأنه لابد أن يتزوجها مهما حدث.

لكن الآن المشكلة زادت تعقيدا. لقد اشترط الرجل عليه أن يقوم بتجهيز كل شيء. هذا غير تورطه بزواجه من عواطف التي ستأتي له بطفل خلال شهور قليلة.

وزواجه لم يأت له بشيء. مازال لا يملك مقدم شقة أخرى. ولا يملك ثمن الجهاز الذي يشترطه عليه الرجل. على أى شيء يفرح. وماذا سيقول له أبوها؟

هي لا تهتم بشيء، البنت تحبه حقا، رغم ما تعرفه عنه الآن، تحبه رغم أنه خذلها وتزوج عواطف.

دخلت عواطف تحجل. ابتسمت ابتسامة عريضة. وسارت وسط الحجرة. تبتسم لقدرية ومديحة. تريد قدرية أن تضحك. فمنظرها –وهي تسير وسط المكاتب– يثير الضحك. لكن مديحة أحست بالأسى، لقد جاءت تلك المرأة لتفسد فرحتها. قالت عواطف لها:

– سأراجع الجزاءات مع الأستاذ خليل.

تمنى خليل لو كف الأطباء عن توقيع الجزاءات على الممرضات والعمال. لو يستطيع لدار على كل ما له سلطه توقيع الجزاء، وأستحلفه بألا

يفعل هذا، حتى لا يضطر لأن يجلس أمام عواطف كما سيحدث الآن.
الحمل يجعل مقاومتها تضعف. تصاب بـــالبرد دائمـــا. تســـعل، تتمخـــط، تعطس.

كان المفروض أن تتيب مساعدتها لعمل هذا، لكنها تريد أن تجالسه. تحـــس أنه يبتعد عنها دائما. كانت تنظر من وقت إلى آخر إلى مديحـــة وقدريـــة، تحدثهما في أمور الحمل. متاعبه الكثيرة. الطفل الذي يدق جدران البطـــن بساقيه ويديه، لا يرحم. تقول هذا وهي تضحك سعيدة. تنظر إلـــى خليـــل الذي يبحث في الكشوف عن الأسماء التي تذكرها له، ليكتب أمامها قيمـــة الخصم.

تشرد عواطف أحيانا. تتذكر. أيام أن كانت تتابع خليل ومديحـــة. تتســـلى بعلاقتهما معا. من كان يصدق وقتها. أنها هي التي ستفوز به وتنجب منـــه أيضا.

مديحة تزفر. ماذا حدث للفتاة. أهي مازالت تريده. لقد اكفهر وجهها عندمـــا رأتها. كما أنها لم تعد تحدثها وتمازحها كما كانت قبل زواجها من خليل.
آه.. أحست الفتاة أنها أخذته منها..

تسير رسمية أمام الحجرة. تهز ردفيها. وتدق ساقيها الممتلئتين فـــي عصبية، كأنها تريد شيئا. ما الذي يحدث هنا، أيحسدونها من أجـــل زوج. وهى التى عاشت السنوات الطوال دون زواج، حتى يأست مـــن قدومـــه. أكثير عليها أن تسعد وحدها معه؟ المستشفي مليئ بالرجال الأكثر وســـامة وأناقة منه. فلماذا تتركهم رسمية جميعا. وتطوف حول زوجها هي.

والبنت مديحة. لماذا لا تبحث لها عن شاب في مستواها. موظف صغـــير يعمل في "الاستقبال" أو شئون الأفراد. وتترك لها خليل.

تتحرك مديحة في عصبية. كأن عواطف هي التى تزاحمها في زوجها. خليل لم يعد يتحدث معها كما كان يفعل قبل الزواج، ليس بينه وبينها سوي الأسماء وعدد أيام الخصم، ثم يحدد هو القيمة من خلال الأجر المكتوب أمامه. يطل عبد المنعم مبتسما من بعيد، يتابع الموقف من حجرته الصغيرة القريبة من حجرة خليل، يري رسمية وهي تسير أمام الباب. ويري عواطف التى تريد أن تحمي زوجها.

عندما تغشاها لحظات الحزن مما تري. تتذكر أنها حامل، والحزن ليس في صالحها. لابد أن تضحك وتبتسم حتى يخرج الطفل صحيحا، غير معقد.

تبتسم ثانية لمديحة وقدرية، تحدثهما عن أطفال أخيها، وعن زوجته ونوادرها في فترة الحمل. وطلباتها الغريبة.

أحس خليل براحة عندما حملت أوراقها، وحجلت، ثم خرجت.

وقفت مديحة لتزيل عن الحجرة غبار الصمت، الذي جثم فوقها طويلا. بورود عواطف ورسمية. ضحكت وتمنت لو كانت وحدها لترقص. وابتسم خليل. وقدرية تنظر إليها مندهشة. مازالت مديحة تريده، وهو ما الذي يريده منها بعد أن تزوج؟!

• • •

بعد أن صفا الحال لخليل. وزال عنه القلق والكدر. عفا عن عبد المنعم. وبدأ يتردد على حجرته، بل زاره في بيته، عندما شكا له حال ابنه طالب التجارة، الذي أصبح في البكالوريوس، ويخاف أن يرسب، أو يخرج بمادة أو مادتين.

ظن عبد المنعم أن حالة الصفا هذه، سببها رسمية. أجل، فالمرأة تجيد معاملة الرجال. وتزيل عنهم الهم. لم يحك له خليل عن مقابلاته المتكررة

لمديحة.في المحلات العامة، وفي الحدائق العامة، ولم يحك له عن حكاية الترام التى يستقلها من بعد الظهر حتى آخر ترام تصل إلى الجراج. وصداقته للكمسارية والسائقين.

عاد ثانية إلى ركوب الترام في الصباح. وانتظار عبد المنعم. وركوبه نفس الترام. لاحظ عبد المنعم أن معظم الكمسارية والسائقين يعرفونه. ويحدثونه. ويطلبون زيارته في المستشفي. أو زيارة أقاربهم له هناك.

قال عبد المنعم:

– لقد أصبحت مشهورا.

* * *

ولدت عواطف في نفس المستشفي. المدير –نفسه– أشرف على ولادتها. وطلب رئيس قسم الولادة في بيته. وعدداً من الأطباء. فقد كانت حالتها سيئة للغاية. قالوا أن هذا راجع لتأخرها في الزواج.

بكي فوزي بك كطفل. وعادل –شقيقها– الذي كان موجوداً بالصدفة في الإسكندرية– أخذ يذرع الردهة الكبيرة في أسي وزوجته تبكي.

وخليل أحس بأن جسده قد وهن. وعجز عن الحركة. أنه غير قادر على تحمل شيء. ماذا لو ماتت عواطف كيف يستطيع تحمل ذلك؟!

ولدت عواطف بعد عناء، ولداً يشبه جده فوزي، هكذا قالت زوجة عادل عندما رأته.

لكن المأساة أن مدير المستشفي. قد جمع خليل وفوزي بك وعادل.. وأخبرهم بالحقيقة التى لا يعلمونها.

وهي أن عواطف مريضة بالقلب. ولن تستطيع الحمل ثانية. بل لا بد لها من معاملة خاصة. وراحه تامة. وقرر أن تبقي في المستشفي مدة، في قسم

"جراحة الصدر"، حتى تستعيد صحتها. بعد ما لقيتــه فــي فــترة الحمــل والولادة.

أحس خليل بشعور غريب لم يحسه من قبل لوجود ابنه الصغير. ذلــك الأمر لم يحسب له حساباً عندما فكر في المستقبل. لم يكن يظن أن وجــود طفل مثل هذا سيغير من أشياء كثيرة.

زال الورم الذي كان بوجه عواطف، واستعاد أنفها مكانه الطبيعي فــي وجهها. وعادت إلى ما كانت عليه قبل الحمل. لكن الاصفرار إزداد. أكانت مريضه بالقلب قبل زواجها؟، أم أن الحمل كان سبب ذلك؟ هــي لا تدري عن هذا شيئا. حاول الأطباء أن يخففوا عنها. فلم يخبروهــا بمــدى تعبها. قالوا أن القلب تعب قليلاً مما لقيته في فترة الحمل والــولادة التــى كانت عسيرة.

* * *

بمرور الأيام عاد خليل إلى حياته العادية. الحديث مع مديحة ومقابلتــها. ثم ركوب الترام حتى آخر الليل، ومازالت رسمية تطارده. تقترب منه كــل يوم. تتذرع بأي شيء. تدق جانب المكتب بردفيها. وتخلع النظارة لتريــه سحر عينيها، وهو يقاوم.

الرجل أعزب الآن. زوجته مريضة في المستشفي. وطبيب شاب، قــال لها: إن ممارسة الجنس خطر على قلبها.

سيظل خليل عزبا مدي حياةاعواطف، إلا إذا تزوج عليها.

موظف من موظفي المستشفي رأي خليل ومديحة يسـيران معــا فــي محطة الرمل، هكذا جهارا، تضع يدها فــي ذراعــه، وكأنــهما خطيـب وخطيبة، أو زوج وزوجة.

أشاع الخبر في المستشفي كلها، حتى الأطباء علموا به، الوحيد الـذي لم يسمع بالخبر هو والدها الذي مازال يقشر البصل في المطبخ.

حتى عواطف وصلها الخبر، قالوا لها هذا، غير مراعين لحالتها الصحيـة، التى قد تؤدي بها إلى الموت لسماع خبر مثل هذا.

وفعلا. ساءت حالتها، وبكت.

وعندما بلغ خليل الخبر. ذهب إليها. لكنها صرخت في وجهه. وطلبت من الممرضة أن تخرجه من حجرتها، فاضطر أن يخرج.

رسمية بكت فوق سريرها. ومسحت دموعها مســرعة حتـى لا تسـألها الزميلات عن ذلك.

أسرعت إليه غاضبة. قالت:

- أستاذ خليل، أريدك في كلمة.

قالت هذا دون خوف من شيء. وخرج خليل وسط دهشة مديحة وقدرية:

سارت بعيدا عن الحجرة، قالت:

- أريد أن أتحدث معك في أمر هام.

- تفضلي.

- هيا نجلس في "الكافتيريا"

جلسا أمام دهشة حامد. الذي ترك عمله وظل يتابعهما. ثم أسرعت قدريـة إلى حجرة عبد المنعم. لتبحث عنه. وجدته يباشر عمال الحديقة. قالت لـه عما حدث. ضحك وسار إلى الكافتيريا. رآهما. ابتسم وعاد.

قالت رسمية:

- زوجتك غاضبة لأنك تقابل البنت مديحة خارج المستشفى.

لم يجبها.

- علاقتك بها قد تدمرك. من الممكن أن تقضيَ على حياة زوجتك. هـذه غير أهل مديحة "الجعافرة". وأبوها إن أخفوا عليه اليوم. فسيعلم في يوم من الأيام.

- وماذا تريدين؟

- أخاف عليك.

قام غاضبا. ثم سار إلى خارج المستشفي.

إلى أين يذهب. حالة عواطف ساءت بسببه. ومديحة لا يستطيع أن ينالها. وربما وصل الخبر إلى أبيها وأهلها وحدث ما يقوله عبد المنعم. من إحاطه المستشفي بعصيهم وسكاكينهم.

ركب الترام، جلس في مكان خالٍ، أراد أن يظل -هكذا- إلى آخر ورديه الترام. لكنه لم يستطع الاستمرار. هبط منها وذهب إلى بيته. فتح الباب، ودار في الشقة وحده. لن يقابل مديحة مرة أخري. فقد تموت عواطف من شدة ألمها. وقد يقتل الجعافرة مديحة. حتى رسمية لن يخضع لها مهما حدث.

نام، بعد أن رمي ملابسه في كل جزء في الشقة. كان يخلع الحذاء. ويسير شاردا. ولا يحس إلا والبنطلون في ركن آخر. وهكذا، حتى نام فوق فراشه.

* * *

استيقظ عند المغرب. ارتدي ملابسه على عجل وذهب إلى المستشفي. أسرع إلى حجرة عواطف. دخل دون أن تراه الممرضة. كانت عواطف تتجه للناحية الأخرى. أحست بدخوله. فاعتدلت. ظنها ستصرخ.

كما فعلت في الصباح. لكنها ابتسمت، قائلة:

- تعال.

أفسحت له مكانا بجوارها على السرير. انحني وقبلها. ابتسمت له:

- إنني غير غاضبة منك. فأنت معذور. حالتي السيئة منعتني من أن أعطيك حقك كزوج.

قبل يدها:

- لا تقولي هذا.

- هذه حقيقة. وأنا معترفة بها.

- أنني لا أريد سواك وابني.

فوجئت الممرضة به. وهو يجلس هكذا. كانت مستندة بنصفها الأعلى على الوسادة المعلقة.وكانت مبتسمة نقلت الممرضات ما رأين لرسمية - التى بات معروفا مدي تعلقها به -قالت:

- ليس مهما. المهم أن يبعد عن البنت مديحة.

* * *

في الصباح كانت عواطف هادئة. تبتسم، وتتحدث بود لكل من يقابلها. طلبت من رئيس القسم، أن يسمح لها بالخروج. قال لها (مشيرا إلى ما حدث بالأمس، بينها وبين زوجها)

- أخاف أن تتأثري بشيء يضر بصحتك.

قالت مبتسمة:

- أطمئن. لن يحدث ما يضرني.

وعندما حاولت زميلة لها أن تنصحها بعدم الاهتمام بأفعال زوجها. لأن لو حدث لها مكروه. لن يهتم. قالت:

- لقد تأكدت أن ما قيل عن علاقته بالبنت مديحة. مجرد إشاعه؛ أطلقها ناس يبغون التفرقة بيننا.

دهشت زميلتها ولم ترد.

جاء عادل شقيقها بسيارته. حمل أمتعتها. فاستندت -هي- على كتف خليل وسارت إلى العربة.

وكان فوزي بك يسير بجوارها على مهل. مبتسما. لم تحك لأبيها ولا لأخيها عما حدث من خليل. بل. عاملته أمامهما بود شديد.

* * *

لم تتأثر مديحة بما حدث. خاصة أن أباها للآن لا يعلم. اقتربت من مكتبه. وتمتمت، لكنه تحدث مع قدرية. عادت مديحة خائبة.

قدرية منذ أن علمت بما حدث وهي غاضبة من مديحة. صرخت فيها فور علمها بهذا:

- لم أكن أظنك هكذا.
- لماذا يا قدرية؟
- كنت معك قبل أن يتزوج. لكن الآن بعد أن تزوج، لا.

ثم امتنعت عن محادثتها. حتى الإفطار تتناوله وحدها الآن.

لقد أصبح جو الحجرة كئيبا. ومديحة لا تستطيع أن تستغني عنه.

قالت وقدرية مازالت في الحجرة:

- أستاذ خليل، أنا لم أفعل شيئا يغضبك.

نظر خليل إلى قدرية المنشغلة بالعمل:

- وأنا لست غاضباً منك. إنما غاضب من نفسي. أحس أن كل ما أفعله يضر بالناس. يضرك، ويضر عواطف.

نظرت قدريه إليهما في ضيق. ثم زفرت. فعادت مديحة إلى مكتبها.

عادت عواطف إلى عملها، أختار لها المدير حجرة في الدور الأرضي.
وطلب من البنات الممرضات أن ينزلن إليها. وأن تشرف مساعدتها على عملهن في السكن.
وعاد خليل إلى محادثة مديحة بلا خوف لكنه لم يقابلها خارج المستشفي مرة أخري.
بعد عدة أشهر. أنفرد مدير المستشفي بعواطف في حجرته. كانت تعرض عليه بعض الأوراق. قال لها في ود شديد:
- أنت زميلة قديمة. وحياتك غالية علينا. لهذا. أريد أن أحدثك بصراحة.
يجب أن تحترسي من معاملاتك الجنسية مع زوجك. خاصة انه -لا تؤاخذيني- كالثور-
ارتبكت، وأحست بالحياء:
- لكن...
- الظاهر أن زوجك يتمادى في هذا الموضوع. وأنت تعرفين حالتك.
لا أخفي عليك. التمادى في هذا، له ضرر شديد. كما أن الموضوع كان له أثر في سوء حالتك.
خرجت من الحجرة حزينة. خلعت رداءها الأبيض. ارتدت ملابس الخروج. وذهبت إلى البيت. هكذا دون استئذان.
زوجها كالثور حقا، يحتاج لزوجة قوية مثله.
بكت. ظنت أنها ستكون ندا له بعد الولادة. فإذا حالتها تسوء. ويحول المرض بينها وبينه.

لقد أحسن معاملتها بعد معرفته مرضها وبعد أن علمت بحكايته مع البنت مديحة.

استلقت على ظهرها، وأغمضت عينيها. وأخذت تسرح.

عندما عاد خليل. عاملته وكأن شيئا لم يحدث. قال لها:

- لقد بحثوا عنك. ما الذى جعلك تخرجين فجأة.

- أحسست بالتعب. فحضرت إلى البيت.

- أطلب لك الطبيب؟

ابتسمت قائلة:

- لا. أنني في أحسن حال الآن.

أعدت له الغذاء. وأخذت تنظر إليه:

- ستخرج اليوم أيضا؟

- أجل.

صار حديثه معها لينا. كانت تظنه يذهب في ذلك الوقت لمقابلة رسمية. فإذا به يقابل مديحة. أو لعله يقابل الاثنتين.

خرج بعد الغداء ككل يوم. ركب الترام كعادته. منذ أن انكشف أمره مع مديحة لم يقابلها. اكتفي بالحديث معها في الحجرة. حديث عادى جداً.

* * *

اتصلت عواطف بالمستشفي. سألت عن عبد المنعم. الذى يسهر أحيانا. ليشرف على العمال. قالت:

- عبد المنعم. أريدك في البيت حالا.

جاءها عبد المنعم قلقا:

- أحدث شيء من خليل أغضبك.

- لا.

- لقد أرسلت لك لأعقد معك اتفاقا جديدا.

- تحت أمرك.

- وأنت تعرف أنني أدفع لك أتعابك وأكثر.

- كلك كرم.

- أريدك أن تؤثر على خليل. لكي يقيم علاقة مع رسمية.

ضحك عبد المنعم:

- تمزحين، لا شك.

صرخت فيه:

- إنني جادة فيما أقول.

- كيف تطلبين طلبا مثل هذا؟!

- أطلبه، لأنني أريد أن أحتفظ به كزوج. لا أريده أن يتركني.

بكت...

- كل أملي أن يبقى معي. حتى يكبر ابني.

- وما شأن هذا بالبنت رسمية؟!

- رسمية تريده. وهو يقاومها.

- أجل. أعرف هذا.

- هي ستعوضه عن الذى لا أستطيع أن أعطيه له. وبذلك ينشغل عن مديحة.

جلس عبد المنعم. ظن أن المرأة قد أصابها شي من الجنون. ما الذى تقوله. تريد أن تساعد زوجها لإقامة علاقة مع امرأة أخري. غيرها؟!

- لو ظل هكذا. سيضطر أن يتزوج مديحة. رسمية لن تتزوجه أبداً.

وهذا ما أريده.

وقف حزينا .. تلك أسوأ صفقة يعقدها فى حياته.

أخرجت من سترتها مبلغا من المال قدمته إليه.

- خذه.

- لا.لا .. لا أريد مالا.

- كان جادا هذه المرة. لكنها أصرت أن يأخذه.

* * *

لقد مرت السنوات. انتقلت رسمية من المستشفي. ومازال زوجها سمير عبد الغفار في السعودية. يأتيها عدة أيام خلال العام. وتصل أخبارها من الممرضات زميلاتها، عن علاقاتها الكثيرة.

وحصل عبد المنعم على مبالغ كبيرة من عواطف، على أساس أن يساعد زوجها على إقامة علاقة بينه وبين رسمية. لكن ذلك لم يحدث أبدا.

وتزوجت مديحة بعد ذلك. ومازالت تعمل في نفس المكتب مع خليل.

وخليل يقضي وقته بعد الظهر في ركوب الترام، يأخذ أحيانا ابنه "أشرف" الذي بلغ الخامسة الآن.يشترى له الحلوى. ويحدثه مشيرا إلى اللمبات النيون التى تتراقص أمامهما.

وعواطف كما هي. تعاني من المرض. تعمل أحيانا. أو أن يأمر الطبيب بحجزها فى المستشفي لعدة أيام. لكنها تعود بعد ذلك إلى البيت.

الإسكندرية

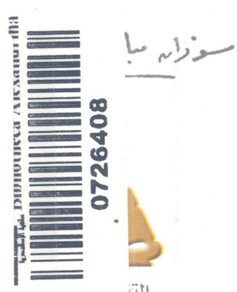
١٩٨٩/٦/٢٨

رقم الإيداع : ١٤٦٤١ / ٢٠٠٣
I.S.B.N. 977 - 01 - 8811 - 5



وبعد أكثر من عشرة أعوام من عمر مكتبة الأسرة نستطيع أن نؤكد أن جيلاً كاملاً من شباب مصر نشأ على إصدارات هذه المكتبة التى قدمت خلال الأعوام الماضية ذخائر الإبداع والمعرفة المصرية والعربية والإنسانية النادرة وتقدم فى عامها الحادى عشر المزيد من الموسوعات الهامة إلى جانب روافد الإبداع والفكر زاداً معرفياً للأسرة المصرية وعلامة فارقة فى مسيرتها الحضارية.

سوزان مبارك



الهيئة المصرية العامة للكتاب

الثمن ١٠٠ قرشاً